htm



البابا شنوده الثالث

سلسلة الحروب الروحية

Spiritual Warfare

(4)

(٤)

إدانة الآخرين



حضرة صاحب القداسة والغبطة

البابا شنودة الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

البابا شنوده الثالث
سلسلة الحروب الروحية
٤

Spiritual Warfare
(4)

(٤)

إدانة الآخرين

Judge Not Others

By H. H. Pope Shenouda 111

2nd Print
January 1990
Cairo

الطبعة الثانية
يناير ١٩٩٠
القاهرة

قصة هذا الكتاب

أصل هذا الكتاب يرجع إلى محاضرتين ألقيتهما سنة ١٩٦٥ فى القاعة المرقسية بدير الأنبا رويس بالقاهرة عن إدانة الآخرين وأقوال الآباء فيها .

وتحدثت فى هذا الموضوع أيضاً فى محاضرتين اخريين القيتهما فى الكاتدرائية المرقسية الكبرى فى ٦٩/٣/٢١ ، ٦٩/٣/٢٨ .

ثم تعرضت لهذا الموضوع مرة أخرى ، خلال هذا العام (١٩٨٧) ، وأنا فى مجال تفسير وشرح العظة على الجبل ، فى (متى٧ : ١- ٥) . كما ألقيت محاضرتين عن الإدانة فى الكنيسة المرقسية الكبرى بالاسكندرية فى يونيو ١٩٨٧ .

ومن هذا المزيج كله ، خرج هذا الكتاب الذى بين يديك .

أقدمه لك باعتباره الجزء الرابع من (سلسلة الحروب الروحية) . وقد صدر الجزء الثالث منذ شهرين عن (الغضب) .

وإن شاء الله حينما يصدر الجزء الثانى من كتاب (تأملات فى العظة على الجبل) سنعرض لهذه النقطة باختصار . ومن يريد التوسع ، فليرجع إلى هذا الكتاب .

قال السيد المسيح " لا تدينوا لكي لا تدانوا . لأنكم بالدينونة التي بها تدينون ، تدانون .." (متي ٧: ١) .

وقال القديس بولس الرسول " من أنت الذي تدين عبد غيرك ؟ هو لمولاه يثبت أو يسقط ..." (رو ١٤: ٤) .

وكرر القديس يعقوب الرسول نفس السؤال تقريباً ، فقال "من أنت يا من تدين غيرك"(يع ٤: ١٢) . وقال أيضاً لا يذم بعضكم بعضاً أيها الأخوة . الذي يذم أخاه ويدين أخاه ، يذم الناموس ويدين الناموس ..." (يع ٤: ١١)

فإلي أي مدي ، وبأي تفسير ، نفهم معني إدانه الآخرين ؟

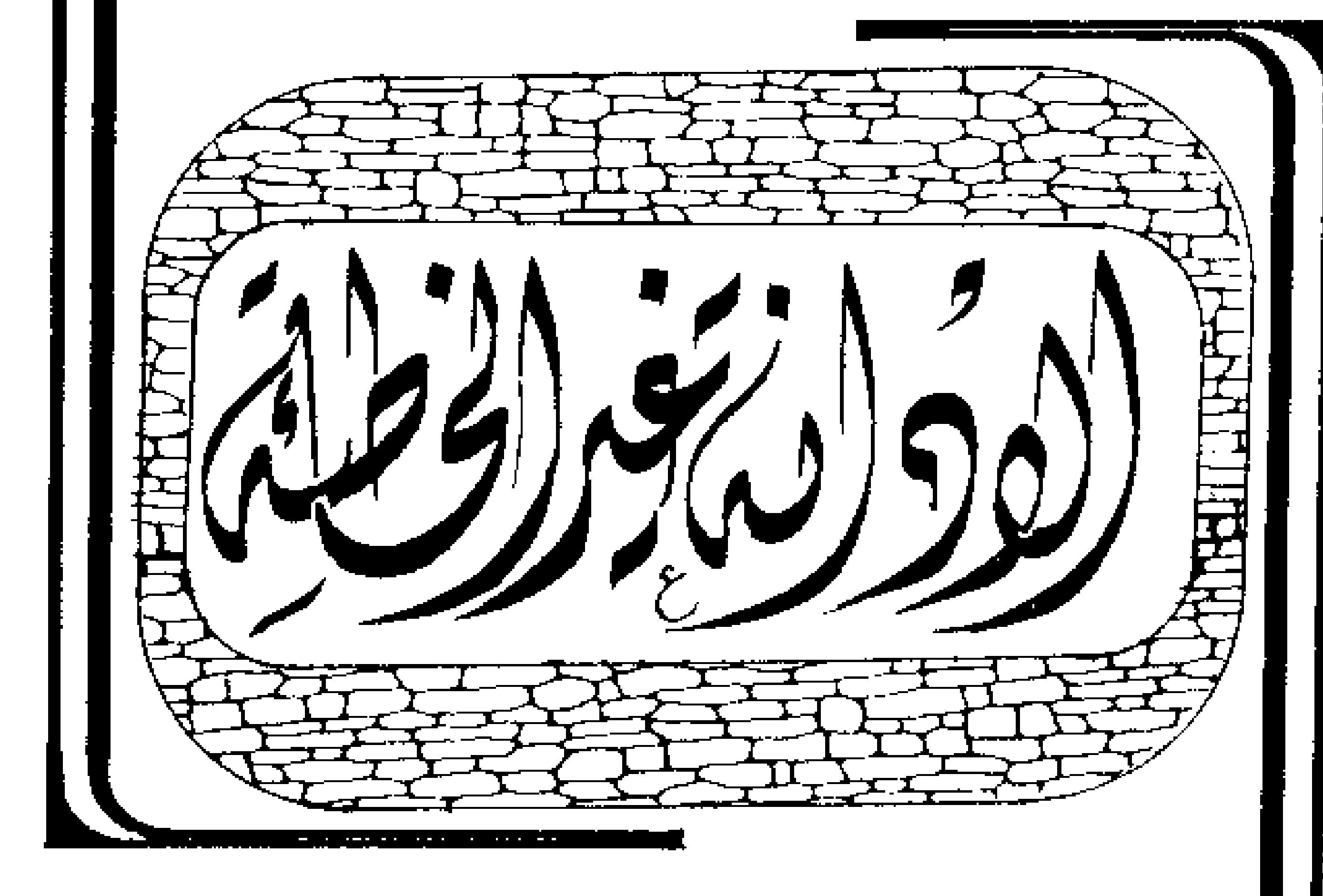
هل هي وصية نفهمها بمعني مطلق ، بحيث لا يمكن أن نذكر كلمه سوء عنة إنسان ، مهما كانت الظروف، ومهما كان الشخص الخاطئ ؟ وهل الإدانة خاطئة في جميع الحالات ؟ أم أن هناك حالات تجوز فيها الإدانة أو تجب ؟ وأن كان كذلك ، فمتي تجوز الإدانة ؟ ولمن ؟

بل متى تكون الإدانة واجبة ؟

ومتى نخطئ إن كنا ندين غيرنا ؟

هذا ما نود أن نجيب عنه الآن

الفصل الأول



١ - المسئولية والرعاية .

٢ - التمييز الطبيعي .

٣ - مفهوم وصايا كتابية .

٤ - إدانة الهرطقات والبدع .

٥ - النصح والهداية والتوبيخ .

٦ - النقـد .

٧ - إدانة النفس .

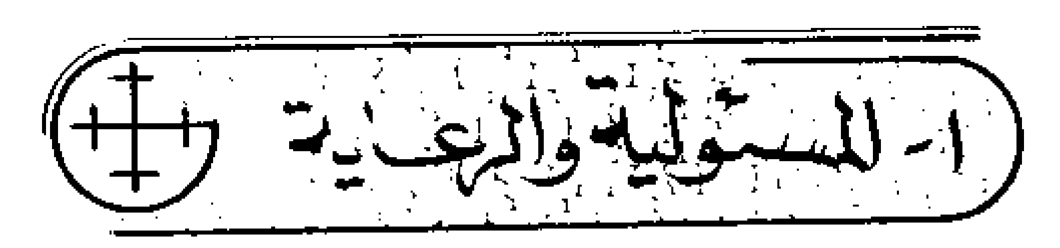
من يبرىء المذنب .

شروط الإدانة غير الخاطئة .

لا تحكموا قبل الوقت .

الحكم بالحق .

هناك حالات كثيرة تجوز فيها الإدانة ، ولا تكون خطية ، نذكر منها :



تجوز الإدانة حينما تصدر من مسئول أو صاحب سلطان

هناك أشخاص أقامهم الله بسلطان على غيرهم . من حقهم أن يدينوا من هم تحت سلطانهم ، ولا تنطبق عليهم الآية التى تقول « لا تدينوا لكى لا تدانوا » ..

وهؤلاء ليس من حقهم فقط أن يدينوا ، بل من واجبهم ...
بحيث أنهم يخطئون إن لم يدينوا من هم تحت سلطانهم .

من أمثلة هؤلاء : الأب والأم . وقد ائتمن الله الآباء والأمهات على تربية أولادهم . ومن حقهم أن يوبخوا أبناءهم على أخطائهم . وأن يقولوا للإبن « إن تصرفك هذا خاطىء ، و ينبغى أن تتركه » . وإن لم يتركه قد يأخذ منهم عقوبة .

لاشك إنها إدانة ، ولكنها ليست خطية إدانة .

لإنها صادرة من شخص صرّح له الله أن يدين ، بل أمره بذلك ، كجزء من تربيته لإبنه . بل إن الأب الذى يقصر فى تربية إبنه ، و يهمل فى تنشئته وتوجيهه ، ولا يدينه و يوبخه على أخطائه ، هذا الأب يعاقبه الله ...

ومثال ذلك العقوبة التى أوقعها الله على عالى الكاهن .

كان أولاده يخطئون ... وسمع عالى الكاهن بذلك ، وأدانهم ، ولكن ليس بحزم ! قال لهم : « لماذا تعملون مثل هذه الأمور؟ لأنى أسمع بأموركم الخبيثة من جميع هذا الشعب . لا يابنىّ ، لأنه ليس حسناً الخبر الذى اسمع ... » « ولم يسمعوا لصوت أبيهم » (١صم ٢ : ٢٢- ٢٥) .

وغضب الرب لأن عالى الكاهن تراخى فى إدانة أولاده ، فقال « هوذا أنا فاعل أمراً فى إسرائيل ، كل من سمع به تطن أذناه . فى ذلك اليوم أقيم على عالى كل ما تكلمت به على بيته ... وقد أخبرته بأنى اقضى على بيته إلى الأ بد ، من أجل الشر الذى

يعلم أن بنيه قد أوجبوا به اللعنة على أنفسهم، ولم يردعهم» (١صم٣: ١١- ١٤).

إذن الإدانة هنا واجب ملزم، من يقصر فيه يعرض نفسه للعقوبة.

ليس فقط أن يدين الأب أولاده إن أخطأوا. بل أكثر من هذا أن «يردعهم». أى أن يمنعهم -بسلطانٍ- من ارتكاب الخطأ، ومن الاستمرار فيه...

وما أكثر الوصايا التى أعطاها الله للآباء والأمهات لتأديب أولادهم. ومعها وصايا أخرى للأبناء أن يطيعوا آباءهم فى الرب، لأن هذا حق (أف٦: ١).

وما نقوله عن الأب الجسدى، نقوله أيضاً عن الأب الروحى، وعن الراعى عموماً...

ومن هنا أعطى الله للآباء الكهنة، وللرعاة، وللأنبياء، واجباً هو انذار الخطاة وإدانتهم. فقال «يا ابن آدم، قد جعلتك رقيباً... فاسمع الكلمة من فمى، وانذرهم من قِبلى. إذا قلتُ للشرير موتاً تموت، وما أنذرته أنت، ولا تكلمت إنذاراً للشرير من طريقه الرديئة لإحيائه، **فهذا الشرير يموت بإثمه، أما دمه فمن يدك اطلبه» (حز٣: ١٧، ١٨).**

إذن إنذار الخطاه وتوبيخهم وردعهم وإدانتهم وإدانة طرقهم للشرير، ليست مجرد حق للآباء والرعاة، بل كل ذلك واجب عليهم، يدانون إن لم يقوموا به. ولكنهم يخلصون من الدينونة، إن هم أدانوا هؤلاء الخطاة، وأنذروهم من جهة نتيجة شر أفعالهم. وهكذا يكمل الرب وصيته فيقول «وإن أنت أنذرت الشرير، ولم يرجع عن شره، ولا عن طريقه الرديئة، فإنه يموت بإثمه. أما أنت فقد نجيت نفسك» (حز٣: ١٩).

ونفس الكلام نقوله عن المدرس مع تلاميذه، ورئيس العمال مع مرؤوسيه، وأيضاً عن القاضى بالنسبة إلى المتهمين.

كل هؤلاء لهم الحق أن يدينوا من هم تحت سلطانهم، فى نطاق اختصاصاتهم لا يتعدونها، وفى حدود الواجب المناط بهم، وفى مجال عملهم ومسئوليتهم. وفى الالتزام بالحق والعدل.

فإن قال المدرس لتلميذه إنه مهمل فى أداء واجباته الدراسية، وإن قال رئيس العمل لأحد عماله إنه غير أمين فى عمله. وإن قال القاضى إن هذا المتهم مذنب، لا يكون أحد من هؤلاء قد خالف وصية «لا تدينوا لكى لا تدانوا».

وإن سمع قول الرسول «من أنت يا من تدين غيرك» (يع ٤ : ١٢)، يجيب «أنا المسئول عنه وعن عمله».

إنه يدين، وبسلطان. وفى عمله إدانة، ولكنها ليست خطية إدانة. لأن الإدانة هنا من حقه، بل هى من واجبه.

وإن قصر واحد من كل هذه الفئات فى إدانة من هم تحت سلطانه، يرتبك العمل، ويفسد المجتمع، وتسود اللامبالاة

لذلك إن اجتمع كونسولتو أطباء لفحص مريض، وتشاوروا فى تشخيص مرضه. فقال أحدهم إنه يشكو من كذا، وقال آخر إنه مريض بكذا، وقال ثالث إنه مصاب بكذا.. فهنا القصد التوصل إلى شفاء المريض، وليس القصد هو إساءة سمعته أو التشنيع به.. ولعل مما يشبه هذا تماماً ما ورد فى (نسكيات باسيليوس):

سئل القديس باسيليوس الكبير عن الإدانة، فقال:

إذا كان المقامون على الأخوة يبحثون حالة أخ فى المجمع، وتعرضوا لأخطائه وماذا يُعمل لأجل تقويمه، ولأجل سلامة المجمع من نتائج هذه الأخطاء، فلا تكون هذه خطية إدانة... بشرط أن يفحصوا اخطاءه «فى خوف الله».

وهذا الحق فى الإدانة، أعطاه الرب للكنيسة:

فكما أعطاها سلطاناً أن تحل، أعطاها أيضاً سلطاناً أن تربط (متى ١٨ : ١٨). وأعطاها أن تفصل فى الخصومات. ومن لم يسمع لها فيما تحكم به، يكون كالوثنى والعشار (متى ١٨ : ١٧). فإن قالت الكنيسة لشخص إنه مخطىء، لا تكون قد وقعت فى خطية إدانة، بل تكون قد أدانته بحق وبسلطان.

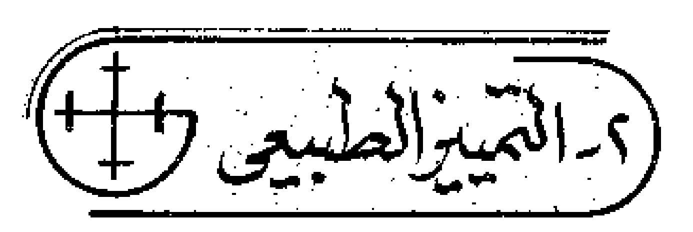
يوحنا المعمدان أدان الخطاة ووبخهم (متى ٣ : ٧). وبولس وبخ كثيرين منهم «الغلاطيون الأغبياء» (غل ٣ : ١). وأمر تلميذه تيموثاوس الأسقف أن يوبخ

ويتهر ويعظ (٢تى ٤ : ٢). وقال له أيضاً «الذين يخطئون، وبخهم أمام الجميع، لكى يكون عند الباقين خوف» (١تى ٥ : ٢٠).

بولس الرسول أدان خاطىء كورنثوس (١كو٥ : ٥)، ووبخ أهل كورنثوس على أنهم لم يعزلوا الخبيث من بينهم (١كو٥ : ١٣). وبطرس الرسول أدان حنانيا وسفيرا وحكم عليهما، بعد أن وصفهما بالكذب، وبالاتفاق على تجربة روح الرب (أع٥ : ٣- ٩).

ولعلك تقول «أنا لست رسولاً ولا نبياً»... لك حق. إذن اعمل فى حدود السلطان الذى وُهب لك من الله، إن كنت صاحب سلطان.

اعمل فى حدود مسئوليتك، مهما كانت ضيقة... على أن يكون ذلك باسلوب روحى، كما سنشرح فيما سيأتى...



٢- التمييز الطبيعى

أحياناً تكون الإدانة شيئاً طبيعياً، مجرد تمييز للخطأ أو الشر.

فأنت مثلاً إن سمعت إنساناً يشتم، لا تستطيع أن تمنع نفسك من إدراك أن هذه شتيمة. وبالمثل إن رأيت رجلاً فى ثورة غضب وقد فقد أعصابه، وهكذا إن رأيت إمرأة فى ملابس متبرجة غير لائقة.

وبالمثل إذا سمعت إنساناً يحلف بأقسام مغلظة، أو سمعت إنساناً يغنى أغانى عالمية، أو يقول فكاهات رديئة جداً من الناحية الأخلاقية، هل استطيع أن أمنع نفسى من إدانة ما أسمعه؟! هناك إذن إدانة تلقائية بحكم الضمير...

ينبغى أن نفهم الروحيات بطريقة سليمة بعيدة عن الوسوسة.

فعدم الإدانة ليس معناه أن أفقد الحكم الطبيعى على الأمور.

فقد وهب الله للإنسان ضميراً يميز به بين الخير والشر. وليس من صالح الإنسان أن يفقد التمييز.

إنه نور طبيعي يستطيع به أن يحكم على أعماله، كما يحكم به على أعمال غيره، مع فارق سنذكره فيما بعد... وإن فقد الإنسان هذا التمييز سوف تختل أمامه القيم والمبادىء، ولا يدرى ما يجب أن يكون، وما لا يجب...

وهكذا قال السيد الرب مرتين فى العظة على الجبل:

« من ثمارهم تعرفونهم » (متى ٧ : ١٦ ، ٢٠) .

وشرح ذلك فقال « هل يجتنون من الشوك عنباً، أو من الحسك تيناً ؟! هكذا كل شجرة جيدة تصنع ثماراً جيدة. وأما الشجرة الردية فتصنع أثماراً ردية. لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثماراً ردية. ولا شجرة ردية أن تصنع أثماراً جيدة. إذن من ثمارهم تعرفونهم » (متى ٧ : ١٦- ٢٠).

فهل إذا رأينا الشوك فعرفنا أنه شوك، وإن رأينا الثمر الردىء فعرفنا أنه ثمر ردىء، أنكون آنئذ واقعين فى إدانة الآخرين ؟! كلا بلا شك...

يقول القديس أوغسطينوس فى تفسير هذه الآية (متى ٧ : ٧) .

هناك شجرة تعطى ثماراً ردية، وشجرة تعطى ثماراً جيدة. ولا يمكن أبداً لإنسان أن يخدع نفسه، ويقول عن الردىء إنه جيد، ولا عن الجيد إنه ردىء. فمما لاشك فيه أن بعض الأمور واضحة جداً، لا نستطيع أن نخدع أنفسنا فيها...

ولعله من أجل هذا التمييز قال القديس بولس الرسول :

خطايا بعض الناس واضحة تتقدم إلى القضاء (١تى ٥ : ٢٤) .

هذه الخطايا الواضحة لا ذنب لك إن أدركتها : من الطبيعى أنك سوف تشعر أن هناك خطأ يتقدم إلى القضاء. وفى نطاق هذا المستوى لا تكون قد أخطأت. إنما توجد ملاحظة لابد أن نقدرها وهى :

هناك فرق بين إدانة العمل وإدانة الشخص :

فإن رأيت شخصاً سكراناً يتطوح فى الطريق، لا تستطيع أن تمنع نفسك من أن هذا خطأ. العمل خطأ، أو الحادث أمامك خطأ. ولكن الشخص نفسه لا تستطيع أن

تدينه، إلا إذا عرفت ظروفه... ربما هناك من خدعه وأسكره. ربما شرب عن طريق الخطأ. وربما العكس. من يدرى ؟!

إذن التمييز شيء، والحكم على الشخص شيء آخر.

كونى أسمع الشتيمة فأعرف أنها شتيمة، هذا تمييز.

أما أن اسمعها، فأقيم فى ذهنى محكمة لصاحبها، وأقول إنه كذا وكذا، و يستحق... و يستحق... فهنا يصبح الأمر إدانة، لأنه انتقل من تمييز العمل والحكم التلقائى للضمير، إلى الحكم على الشخص نفسه.

وإذا أخذت قصة هذا الإنسان موضوعاً لحكاياتى واحاديثى مع الناس، لا أقول حينئذ إنه مجرد تمييز طبيعى، أو حكم تلقائى من الضمير. بل هنا أكون قد تطورت من إدانة الشخص إلى التشهير به. ولاشك أن كلاً منهما خطيئة.

ومن جهة الخطايا الواضحة، توجد أمور تبدو واضحة، وهى على عكس ذلك...

فإن رأيت شخصاً فى الصوم يشرب كوباً من اللبن، وقلت: هذا الإنسان محب للأكل وكاسر للصوم ولاشك أن هذه خطية واضحة تقدمه إلى القضاء!! (١تى ٥: ٤)... فربما تكون مخطئاً فى حكمك. وقد يكون هذا الشخص مريضاً بقرحة فى المعدة أو مرض آخر، ويحتاج إلى اللبن كدواء. وقد وافق على أوامر الأطباء متغصباً من أجل صحته... ولا يمكن أن يحكم عليه بأنه محب للطعام وكاسر للصوم...

وقد علّق القديس على موضوع الأكل هذا، فقال:

إن كل أنواع الطعام البشرى يمكن أن تؤخذ بنية صالحة... وبدون شهوة وبدون تمييز. وتذكر فى ذلك قول القديس بولس الرسول:

لا يزدرِ من يأكل بمن لا يأكل. ولا يدن من لا يأكل من يأكل، لأن الله قبله» (رو١٤: ٣).

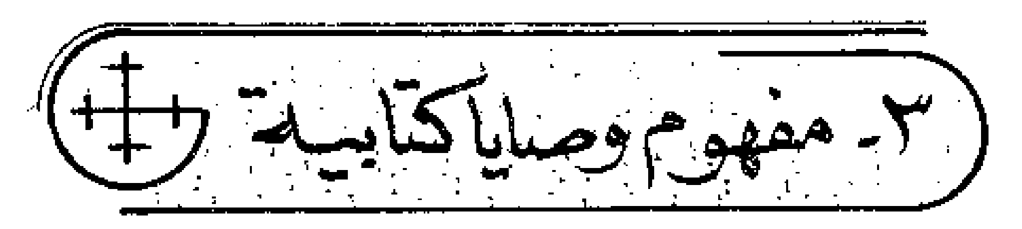
و يكمل القديس بولس الرسول كلامه فيقول «من أنت الذى تدين عبد غيرك ؟! هو لمولاه يثبت أو يسقط. ولكنه سيثبت، لأن الله قادر أن يثبته» (رو١٤: ٤).

أمثال هذه الأمور ليس من حق إنسان أن يحكم فيها. وهى ليست من الخطايا الواضحة التى تتقدم إلى القضاء. الخطايا الواضحة هى مثل الزنى والسرقة والاعتداء وأنواع النجاسات.

أما الأمور التى تتوقف على النية والقصد، فليس من حقنا أن نحكم عليها. الله وحده هو العارف بالنيات.

الله وحده هو فاحص القلوب، وهو الذى يعرف القصد والدافع. ويستطيع أن يحكم إن كان هذا العمل صالحاً أم طالحاً، مما لا تتوفر لنا معرفته.

نقطة أخرى نضيفها إلى عنصر التمييز وهى:



وصايا وآيات تحمل الإدانة:

فهناك وصية فى الكتاب تقول لك «**لا تستصحب غضوباً**، ومع رجل ساخط لا تجىء» (أم ٢٢: ٢٤). فكيف يمكن أن تنفذ الوصية وتبعد عن صحبة الغضوبين، إلا لو أدركت أن هذا الإنسان بالذات هو رجل غضوب؟! فهل هذه إدانة؟ كلا، بل هى لون من التمييز، تماماً كما تميز حفرة حتى لا تقع فيها.

ومثله قول الكتاب «**المعاشرات الردية تفسد الأخلاق الجيدة**» (١كو١٥: ٢٣). فكيف تبعد عن هذه المعاشرات، إلا لو عرفت تماماً إنها ردية؟ فهل هذه المعرفة إدانة؟ كلا، طبعاً...

وبنفس المنطق نتكلم عن الوصية التى يحملها المزمور الأول «طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار، وفى طريق الخطاة لم يقف، وفى مجلس المستهزئين لم يجلس».

كيف يبعد عن هؤلاء الأشرار والخطاة والمستهزئين، إن لم يعرف أنهم كذلك؟ فهل هذه المعرفة خطية إدانة؟

كلا ، بلا شك . مادام الأمر قد اقتصر على المعرفة والبعد . وحتى لو تدرج الأمر إلى نصح أصدقائك ومعارفك وأقربائك وتلاميذك فى البعد عن هؤلاء لا تكون أيضاً قد أخطأت .

أتتركهم يسقطون فى حفرة و وتقول «لا أريد أن أدين الحفرة» ؟!

هوذا الرسول يقول «نوصيكم أيها الأخوة باسم ربنا يسوع المسيح أن تتجنبوا كل أخ يسلك بلا ترتيب ، وليس حسب التعليم الذى أخذه منا» (٢تس ٣ : ٦) . فكيف تتجنب مثل هذا الأخ ، إلا لو عرفت تماماً أنه «يسلك بلا ترتيب» . فهل هذه المعرفة خطية إدانة ؟! كلا ، لأن خطايا بعض الناس واضحة .

وبالمثل الوصايا الخاصة بالبعد عن العثرات :

من المفروض أن يبعد عن العثرات كل إنسان روحى . ولكى يبعد عنها ، لابد أن يعرف أنها عثرات . وليست فى هذه المعرفة خطية إدانة . بل إن السيد المسيح يقول «إن كانت عينك اليمنى تعثرك ، فاقلعها والقها عنك ...» (متى ٥ : ٢٩) .

إن يوسف الصديق قد تعرض لإحدى هذه العثرات ، فقال

كيف أصنع هذا الشر العظيم واخطىء إلى الله ؟! (تك ٣٩ : ٩) .

وهنا نرى أن يوسف قد أدان هذا العمل ، ووصفه بأنه شر عظيم وأنه خطأ نحو الله . ومع ذلك لم يدن المرأة الثانية ، ولم يصفها بأية عبارة جارحة .

إذن إدانة العمل من حقنا . وهو نوع من التمييز الطبيعى لا خطأ فيه ، ولا داعى للتعرض للأشخاص .

والوصايا الخاصة بالبعد عن العثرات مع إدانتها ، ليست هى خاصة بالسلوكيات فقط ، إنما أيضاً هناك العثرات الخاصة بالإيمان والتعليم والعقيدة وهذا يقودنا إلى نقطة هامة وهى .

٤ - إدانة الهرطقات والبدع

يقول القديس يوحنا الرسول، وهو من أشهر الرسل بالمحبة: «إن كان أحد يأتيكم ولا يجيء بهذا التعليم، فلا تقبلوه فى البيت ولا تقولوا له سلام. لأن من يسلم عليه يشترك فى أعماله الشريرة» (٢يو١٠، ١١).

فهل الذى يرفض المبتدعين ولا يقبلهم ولا يسلم عليهم، يكون قد وقع فى خطية إدانة؟ محال أن يكون هذا. بل إنه يقع فى خطية إن كان يسلم عليهم...

والسيد المسيح يقول «لا تعطوا القدس للكلاب، ولا تلقوا درركم قدام الخنازير، لئلا تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزقكم» (متى ٧: ٦). فكيف نفعل هكذا، إن لم نعرف أنهم كذلك. وهذه المعرفة ليست خطية، لأنه بدونها لا يتم تنفيذ الوصية. وبالمثل أيضاً يقول الرب:

« احترزوا من الأنبياء الكذبة، الذين يأتونكم بثياب الحملان، ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة » (متى ٧: ١٥).

فالاحتراس من الكذبة - وإن كان يحمل إدانة لهم ولكذبهم - إلا أنه ليس خطية إدانة، لأن الإنسان الروحي ينبغي أن يكون حريصاً، مميزاً للأرواح حسب وصية الرسول (١يو٤: ١). فالاحتراس من الأشرار ليس خطية. ومعرفة أنهم يأتون بثياب الحملان وهم ذئاب خاطفة، ليس فيه خطأ، بل فيه حكمة.

ليست الروحيات أن تسير مغمض العينين، حتى لا تبصر ولا تدرك حيل الذئاب الخاطفة!

فالكتاب يقول «الحكيم عيناه فى رأسه، والجاهل يسلك فى الظلام» (جا ٢: ١٤). فهل السلوك فى الظلام فضيلة؟ كلا. نحن لا نريدك أن تلعن الظلام. إنما يكفى أن تميزه، وتبعد عنه، وتسلك فى النور. وقد وضح السيد المسيح أن التمييز بين النور والظلمة أمر سهل، فقال «من ثمارهم تعرفونهم» (متى ٧: ١٦).

نقطة أخرى نقولها فى « الإدانة غير المخطئة » وهى :

٥ - النصح والهداية والتوبيخ

يقول الرسول « إن ضل أحد بينكم عن الحق ، فرده آخر ، فليعلم أن من ردّ خاطئاً عن ضلال طريقه ، يخلص نفساً من الموت ، و يستر كثرة من الخطايا » (يع ٥ : ١٩ ، ٢٠) . فهل معرفتك أن أحداً قد ضل عن الحق ، هى إدانة له ؟ كلا طبعاً ، مادمت تريد رده عن ضلال طريقه ، ولست تقصد التشهير به ...

ونحن لا نهدى الخطاة ، إلا إذا عرفنا أنهم خطاة .

تماماً مثلما يعرف الطبيب نوع المريض ، لكى يصف طريقة علاجه . هكذا إذا درسنا الأخطاء التى يقاسى منها فرد أو مجموعة ، أو حتى كنيسة بأسرها ، لا نكون قد وقعنا فى خطية إدانة ، مادام الهدف هو الإصلاح وليس الإساءة إلى سمعة الغير...

والآيات الخاصة بالنصح وهداية الآخرين كثيرة جداً ... والنصح والهداية قد يحملان التوبيخ أحياناً . ولا يحمل هذا التوبيخ خطية إدانة . وفى هذا يقول الكتاب :

« لا تشتركوا فى أعمال الظلمة غير المثمرة ، بل بالحرى وبخوها » (أف ٥ : ١١) . فليست معرفتنا أنها أعمال ظلمة خطية إدانة ، كما أن توبيخ هذه الأعمال غير المثمرة ليس هو أيضاً خطية إدانة . بل أن تبكيتنا لهذه الأعمال هو فضيلة ، لأنه تنفيذ للوصية .

بل أن تبكيتنا لهذه الأعمال هو فضيلة ، لأنه تنفيذ للوصية . على أننا نرجو أن نرجع إلى هذه النقطة فيما بعد ، لنعرف الكيفية السليمة لتنفيذ هذه الوصية .

وتدخل فى مجال هذا التبكيت ، ما يلزم لأعمال الرعاية .

حسبما قال القديس بولس الرسول لتلميذه تيموثاوس الأسقف « وبخ ، انتهر ، عظ ، بكل أناة وتعليم » (٢تى ٤ : ٢) .

وإن كانت الإدانة فى اسلوب النصح والتوبيخ، ينبغى أن يعرف الإنسان كيف تكون:

ومثال ذلك ابيجايل التى وبخت داود النبى، ومنعته من اتيان الدماء والانتقام لنفسه، باسلوب كله حكمة، بدأته بالخضوع وبالمديح، ثم مست المشكلة بطريقة غير جارحة، لم تخدش بها شعور داود. بل صارحته ولكن فى أدب وفى تواضع... (١صم ٢٥).

فى كل نصيحتها له، كانت تقول «ياسيدى» وتقول عن نفسها «أمتك» «جاريتك»... بدأت لقاءها معه بأن قدمت له ما كان يطلبه من الأطعمة، وسجدت له وأعتذرت عن خطأ زوجها، وقالت «علىّ أنا يا سيدى هذا الذنب، ودع أمتك تتكلم فى أذنيك، واسمع كلام أمتك».

والعطايا التى قدمتها له لم تجرحه بها، بل قالت «والآن هذه البركة التى أتت بها جاريتك إلى سيدى، فلتعط للغلمان السائرين وراء سيدى، واصفح عن ذنب أمتك».

وبعد كل هذا المديح واسلوب الإتضاع مسّت ابيجايل خطأ داود، مقدمةً له بمديح آخر، فقالت:

«سيدى يحارب حروب الرب، ولم يوجد فيك شرّ كل أيامك» «لتكن نفس سيدى محزومة فى حزمة الحياة مع الرب إلهك...». وهنا دخلت فى توبيخه على نقطة الضعف فقالت «ويكون عندما يصنع الرب لسيدى حسب كل ما تكلم به من الخير من أجلك، ويقيمك رئيساً على إسرائيل، أنه لا تكون لك هذه مصدمة ومعثرة قلب لسيدى، أنك قد سفكت دماً عفواً، أو أن سيدى قد انتقم لنفسه».

نبهته إلى أنه مقدم على الانتقام لنفسه، وعلى سفك دم بلا سبب يستدعى ذلك، ونصحته بالابتعاد عن هذا، حتى لا يصبح هذا الأمر معثرة قلب له فيما بعد...

وهذا النصح المؤدب، والتوبيخ الضمنى، قبله منها داود وشكرها عليه...

وقال لها «... مبارك عقلك، ومباركة أنت، لأنك منعتنى اليوم عن اتيان الدماء وانتقام يدى لنفسى» (١صم٢٥: ٣٣). وتقبل منها عطيتها، وصرفها

بسلام، ورفع وجهها ولم يقم بإيذاء زوجها المخطىء إليه، مستمعاً لنصيحتها.

حقاً، ما أجمل النصح، إن كان بلياقة وأدب. وهنا يسرنا أن نضع قواعد للنصح والتبكيت:

١ ـ قد يكون من حقك أو من واجبك أن تنصح أو توبخ. ولكن ليكن هذا النصح بأدب وباتضاع ومحبة.

إن التوبيخ بروح الكبرياء والتعالي و أو بأسلوب الاحتقار والاستصغار، لا يمكن أن يكون مقبولاً. أما إذا نصحت إنساناً أو وبخته وأنت تقول له:

« أنت تعرف يا (فلان) مقدار محبتي لك، ومقدار حرصي على سمعتك. لذلك أنا غير مستريح اطلاقاً لتصرفك (الفلاني). وأشعر أنه سيضرك و يسيء إليك، وربما يتخذه اعداؤك فرصة ليقولوا عنك إنك.. وإنك.. لذلك ابعد عن هذا الأمر، وحاول أن تصحح ما فعلته بكذا وكذا...».

هذا الكلام مقبول. بعكس إنسان آخر يقابل شخصاً فيقول له «كيف تفعل كذا؟ كيف سمح لك ضميرك؟ هل هذه تصرفات إنسان عاقل؟! هل هذه تصرفات إنسان يحترم نفسه؟! إنك كذا وكذا وكذا» و يصب عليه سيلاً من الألفاظ الجارحة تشعره أنه أمام عدو...!

لذلك إن كلمت إنساناً من أجل خلاص نفسه، فغضب ولم يقبل منك، راجع نفسك: ربما نصيحتك له كانت خالية من المحبة أو من الاتضاع.

ومن الجائز أن نفس النصيحة يقدمها له خادم آخر، ولكن بأسلوب مقبول يستريح له و يشكره عليه. لذلك حسناً قال الكتاب «رابح النفوس حكيم» (أم ١١: ٣٠).

لذلك إن قلنا إنه من أبواب الإدانة غير الخاطئة: النصح والهداية... إنما نقصد النصح الحكيم، المملوء حباً واتضاعاً... ولا نقصد كل نصح مهما كان أسلوبه...

فحسب نوعية الأسلوب يصير النصح خطأ أو صواباً.

وحسب نوعية الأسلوب، يدخل النصح والتوبيخ فى نطاق الإدانة الخاطئة، أو فى نطاق الإدانة غير الخاطئة.

إنك تستطيع أن تدرك تماماً إن كان الذى يوبخك هو مشفق عليك، أم هو يحتقرك و يزدريك. روحه فى الحديث، ولهجته، وألفاظه ومشاعره، هى التى تترك فى نفسك أثراً، ربما أكثر من موضوعية التوبيخ...

٢ - كذلك ينبغى أن يكون التبكيت بحق، وليس ظلماً:

ولعلنا نذكر مثلاً للتبكيت الظالم، موقف عالى الكاهن من حنة زوجة القانة. كانت عاقراً لا تنجب. وكان لضرتها فننة أولاد، فكانت تلك تغيظها. وذهبت حنة إلى هيكل الرب، وسكبت نفسها أمامه. كانت تصلى وهى مرة النفس، وقد بكت بكاء، ونذرت نذراً إن اعطاها الرب نسلاً أن تقدمه نذيراً للرب يخدمه كل أيام حياته. كانت تكلم الرب فى قلبها، وصوتها لم يُسمع، وشفتاها فقط تتحركان، حتى أن عالى الكاهن ظنها سكرى، ووجد من واجبه أن يوبخها!! فقال لها «حتى متى تسكرين؟ انزعى خمرك عنك» (١صم ١: ٩- ١٤).

إنه كاهن، وله سلطان، وهو إنسان مسئول، ومن حقه أن يوبخ وأن يدين. ولكنه فى هذا الموقف كان مخطئاً.

لم يكن يوبخ عن حق. بل كان ظالماً فى إدانته، ظالماً فى حكمه عليها، قاسياً وجارحاً فى أسلوبه. ومع أن حنة أجابته فى أدب شديد يليق باحترام كهنوته. ولكنه مع ذلك كان مخطئاً. ومع أنه دعا لها بالخير، إلا أنه لم يعتذر لها عن سابق كلامه...

لذلك يجب أن يسبق التوبيخ، الفحص والتدقيق.

ولا يجوز أن يوزع إنسان توبيخاته عفواً و بدون أن يتأكد من صحة الخطأ...! إنما إن وثق تماماً أن ما يزمع أن يبكت عليه هو من «أعمال الظلمة غير المثمرة» حينئذ تنطبق وصية «... بل بالحرى بكتوها».

٣ - كذلك لا يجوز التبكيت لنفس مرة معذبة.

لقد وقع فى هذه الخطيئة أصحاب أيوب الثلاثة، وجرحوه أكثر من مرة، وهو مرّ النفس، حتى أثاروه باتهاماتهم وتوبيخاتهم -وكانت ظلماً- فقال لهم أيوب «حتى متى تعذبون نفسى وتسحقوننى بالكلام؟ هذه عشر مرات أخزيتموني. لم تخجلوا أن تحكروني» «تراءفوا تراءفوا أنتم علىّ يا أصحابى، لأن يد القدير قد مستنى» (أى ١٩: ٢، ٣، ٢١). وقال لهم عبارته المؤثرة «أنا أيضاً استطيع أن أتكلم مثلكم، لو كانت أنفسكم مكان نفسى. وأن أسرد عليكم أقوالاً» (أى ١٦: ٤).

الإنسان المرّ النفس يحتاج إلى كلمة تعزية، وليس إلى كلمة توبيخ ونصائح وإدانة!

فإن وجدت إنساناً مرّ النفس، مهما كان مخطئاً، لا تسمح لنفسك أن توبخه، لئلا يبدو توبيخك لوناً من الشماته. قل له كلمة طيبة، كلمة تعزية. فالتوبيخ ليس الآن وقته، وهو حالياً لا يحتمله. يكفيه ما هو فيه. واسمع قول الحكيم «لكل شيء زمان، ولكل أمر تحت السماوات وقت» (جا ٣: ١). وهنا نقول الملاحظة التالية:

٤ - النصح والتوبيخ لا يصلحان إلا فى وقتهما المناسب:

وهنا تخطر على بالى قصة طريفة وهى: قيل إن صبياً نزل إلى البحر يستحم. وكان المكان خطراً فيه دوامات جذبت الطفل، فكاد يغرق وصاح يطلب النجدة. فمر عليه رجل ورآه فى هذه الحال. فقال له «ياولد.. كيف تجرؤ أن تستحم فى البحر، وأنت لا تتقن السباحة؟ وكيف بلغ بك الجهل أن تستحم فى هذه المنطقة الخطرة؟ وكيف...؟ فقال له الصبى «أنقذنى يا سيدى الآن. ثم وبخنى بعد ذلك...».

حقاً تمر أوقات على الخطاة، يحتاجون فيها إلى من ينقذهم، وليس إلى من يوبخهم...

إن للتوبيخ وقتاً، ربما لا يكون الأول فى الترتيب. قد تبدأ أولاً بالحب وبالمعونة. وبكل عوامل الانقاذ، وتؤجل التوبيخ إلى حين آخر. وقد يكون الخاطىء فى حالة من الندم الشديد، وقد بكّت نفسه بتبكيت مرّ شديد، لا يحتاج فيه إلى مزيد.

تأمل الآب الحنون فى قصة الإبن الضال. إنه لم يبكت هذا الإبن بعبارة واحدة، بل رآه من بعيد فتحنن وركض ووقع على عنقه وقبّله، وألبسه الحلة الأولى، وذبح له العجل المسمن... (لو١٥: ١٧- ٢٣)... كان ذلك وقت فرح، ولم يكن وقت تبكيت....

إن النصح والتبكيت قد يدخلان فى نطاق الإدانة غير الخاطئة، ولكن بشروط ...

هى ما ذكرناه... وبغير ذلك قد يتغير الأمر، و يتحول التبكيت إلى جرح وإهانة وإدانة، وربما يأتى بنتائج عكسية.

نقطة أخرى نقولها فى شروط النصح والتبكيت وهى:

٥-أحياناً يصلح تبكيت الخاطىء، إن كان ذلك «فيما بينك وبينه وحدكما» (متى١٨: ١٥).

حيث لا يتعرض للخجل أمام الناس، وحيث لا تنكشف أخطاؤه أمام لآخرين. وحيث يستطيع أن يعترف بالخطأ. و يعتذر عنه، و يقبل التبكيت عليه، ذ لا يراه أحد، فلا يراق ماء وجهه أمام الآخرين، ولا ينفضح أمام الناس. هذا هو النصح فيما بينك وبينه، والتبكيت المستور، والمقبول.

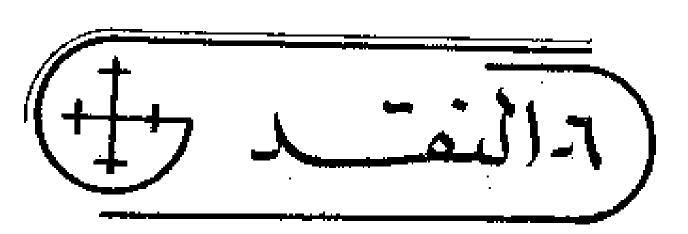
أما إن قمت بتبكيته أمام الناس، فقد يضطر أن ينكر، أو يدافع عن نفسه، أو يكابر!

حتى لو فعلت ذلك بمحبة واتضاع. ولكن إنكشافه أمام الآخرين قد يضطره أن يحمى سمعته بالدفاع الباطل، وربما بالكذب... وتكون أنت قد أعثرته، ودفعته إلى كل ذلك، لأنك فضحته علناً، وخدشت حياءه، وجرحت كرامته...

وقد لا يخجل، بل يتبجح ويقول «نعم قد فعلت».

ليس فى انسحاق قلب، وإنما فى تحد وفى مقاومة. وفى اصرار على أن لا يبدو ضعيفاً أمام الناس!

أما الذين قال عنهم الرسل «وبخهم أمام الجميع لكى يكون عند الباقين خوف» (١تى٥ : ٢٠) فهؤلاء هم الذين خطيتهم معروفة للكل، وأصبح الأمر يتعلق بسلامة الكنيسة كلها وحفظ قيمها وروحياتها... وصار الهدف هو «لكى يكون عند الباقين خوف»... مثال ذلك أناس وقفوا فى وسط الكنيسة يحدثون ضوضاء وهياجاً و يتكلمون بما لا يليق، بغير مبالاة، فهؤلاء يحتاجون إلى توبيخ عام، وليس فيما بينك وبينهم.



قد يكون عمل الإنسان أنه ناقد فى أية صحيفة من الصحف: ناقد روائى، أو ناقد أدبى، أو ناقد مسرحى، أو ناقد رياضى...

فهل يترك عمله كناقد على اعتبار أنه يوقعه فى الإدانة؟ وما الفرق بين النقد والإدانة؟

كلا، لا يترك عمله. إنما يسلك فيه بطريقة سليمة وبأسلوب روحى، مبنية على أسس علمية. ولا يكون أسلوبه هو الهدم والتجريح. وهناك فروق بين النقد والإدانة.

الفرق الأساسى بين النقد والإدانة، هو أن النقد يلتزم الموضوعية. أما الإدانة فكثيراً ما تمس النواحى الشخصية.

النقد يتناول الموضوع ويحلله، ويقوم بعملية تقييم عادلة، يذكر ما فيه من المحاسن ومن العيوب على السواء. وقد يذكر أسباب النجاح وأسباب الفشل فى كل النواحى. وإن كانت هناك مساوىء، يقترح الوضع السليم الذى كان يجب اتباعه.

إذن النقد هو عملية تقييم. وكثيراً ما يلزم التقييم فى كل حياتنا الإجتماعية والكنسية، بل وفى كل أنشطتنا.

والهدف من هذا التقييم هو الوصول إلى الأفضل، باجتناب العيوب، وتحسين مستوى النجاح ورفع درجته. ولذلك كثيراً ما يجلس الإنسان لتقييم أعماله. ويعرف هذا باسم (النقد الذاتى)، ويُعرف فى الروحيات باسم (محاسبة النفس).

والنقد علم، له قواعده وأصوله وأسلوبه. بل له حدوده أيضاً التى لا يتعداها، والتى إن خرج عنها لا يكون نقداً، أو لا يكون نقداً سليماً.

والنقد الذى لا يذكر سوى المساوىء، هو لون من الهجوم. ولا يكون صاحبه منصفاً.

لذلك هناك أنواع ودرجات من النقد، منها النقد الهادىء الرزين ذو الأسلوب العفت. وهو النقد السليم المقبول. ومنها النقد اللاذع، والنقد الجارح. وكل ناقد يختلف فى أسلوبه عن الآخر، ويختلف فى اختيار الألفاظ التى يستخدمها ... والناقد المنصف يتخير الألفاظ كما بميزان دقيق جداً. فإن كنت ناقداً، انظر من أى نوع أنت ... ؟

كن موضوعياً ومنصفاً، ولا تكن قاسياً فى نقدك.

ربما ناقد أدبى أو علمى ينقد كتاباً، فيكون نقده تكملة لازمة لهذا الكتاب، تحتاج إليها معلوماته. وربما ناقد ينقد كتاباً، فيكون نقده مديحاً خالصاً، إن كان الكتاب يستحق ذلك.

كذلك النقد يحتاج إلى دراسة واعية.

يحتاج إلى معرفة واسعة جداً بالموضوع الذى ينقده، كما يحتاج إلى معرفة بفن النقد وأصوله وليس كل إنسان يرقى إلى مرتبة الناقد، أو يدعى لنفسه هذه الصفة. وليس كل ناقد يحترمه المجتمع ويثق به كناقد...

والناقد المنصف يستفيد من نقده القراء، ويستفيد الشخص صاحب موضوع النقد. ويكون نقده للبنيان، مقدماً فيه علماً وأدباً وفناً...

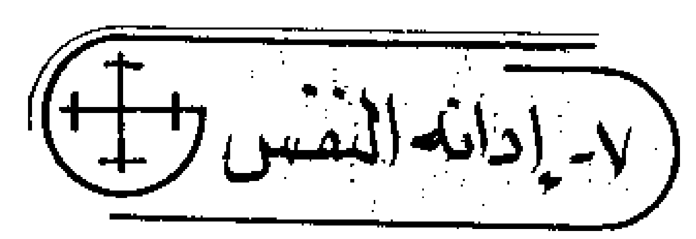
يقول الرب فى سفر اشعياء النبى «ويل للقائلين للشر خيراً، وللخير شراً. الجاعلين الظلام نوراً، والنور ظلاماً. الجاعلين المر حلواً، والحلو مراً» (أش ٥: ٢٠).

هل إذا طلبت فى مجال الشهادة فى محكمة : اتراك تستطيع أن تقع فى شهادة زور لكى تبرىء مذنباً ؟!

وهل إذا قلت الحق، اتراك تقع فى خطية إدانة ؟! حاشا . بل أنك بتبرئة المذنب تقع فى خطية كذب . كذلك فى معاملاتك الخاصة .

إن لم تستطع أن تقول الحق، فعلى الأقل اصمت ، فهذا افضل من تبرئة المذنب ، تبرئة تخدع بها السامعين .

لعل من أبرز أنواع الإدانة غير الخاطئة :



إنها فضيلة ، توصل إلى الاتضاع ، وإلى التوبة والنقاوة ، وإلى امتصاص الرغبة فى الإدانة بطريقة سليمة . وقد قال القديس مكاريوس الكبير « احكم يا أخى على نفسك قبل أن يحكموا عليك » .

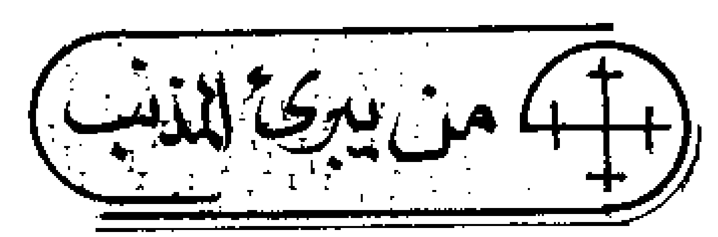
قال القديس الأنبا أنطونيوس « إن دنا أنفسنا ، رضى الديان عنا » . كذلك إن الذى يدين نفسه ، و يوبخ ذاتها لكى يقوّمها ، هذا لا يجد دافعاً داخلياً لإدانة غيره ، لأنه يشعر أنه مخطىء مثل ذاك وربما أكثر .

وإدانة النفس ، تحمى الإنسان من إدانته لغيره .

قال القديس الأنبا موسى عن انشغال الإنسان بخطاياه ، إنشغالاً لا يسمح له أن يتفرغ للحديث عن خطايا غيره :

مَن مِن الناس يكون عنده ميت فلا يبكى عليه ، وإنما يتركه ليبكى على ميت عند جيرانه ؟!

نحب فى موضوع الإدانة أن نورد ملاحظة أخيرة وهى :



من يبرئ المذنب

يحدث عند البعض أحياناً ، أنهم يبرئون كل أحد - مهما كان مخطئاً - حتى لا يقعوا فى خطية الإدانة . وأمثال هؤلاء ، عليهم أن يسمعوا قول الكتاب :

«مبرىء المذنب ، ومذنب البرىء ، كلاهما مكرهة الرب» (أم ١٧ : ١٥).

ذلك لأن كليهما بعيد عن الحق ، و يتكلم بالباطل . ونلاحظ هنا أنه وضع عبارة (مبرىء المذنب) أولاً .

فلا تظن أنك تكون ذا قلب شفوق إن كنت تبرىء المذنب . فالمذنب هو ذنب . والخطأ هو خطأ . قد تدافع عن المذنب من حيث أنه فعل الذنب عن جهل ، أو عن ضعف ، أو عن خوف ، أو بسبب ظروف ضاغطة فتخفف بهذا من ذنبه . ولكن لا تستطيع أن تبرئه ، أو تدعى أنه لم يخطىء ... !

بل يحدث أحياناً أن مبرىء المذنب يثير السامعين .

ويجعلهم يدينونه هو فى دفاعه عن الباطل ، و يدينون المذنب بأكثر شدة حتى يوازنوا مع ما قيل فى تبرئته . وهكذا تأتى هذه التبرئة بعكس المقصود منها .

كما أن تبرئة المذنب تساعد على الاستهتار .

سواء من جهة هذا المذنب ، الذى لا يشعر بتأنيب الضمير بسبب محاولة تبرئته ، فيستمر فى أخطائه ، أو من جهة استهتار من يقلدونه ، شاعرين أنهم سيجدون من يعمل على تبرئتهم .

وقد سئل القديس باسيليوس الكبير هذا السؤال .

ما هى دينونة الذين يحامون عن المخطىء و يدافعون عنه ؟

قال أظن أنها دينونة ثقيلة ، أكثر من دينونة الذى يعثر غيره ، كما وردت فى الإنجيل (متى ٥ : ٢٩ ، ٣٠) .

لأن الذى يدافع عن المخطىء، يمنع المخطىء من أن يتوب.

ويجعله بهذا يستمر فى خطيته، و يعلّم غيره شرّه.

وهذا حق، لأنه إن كان هذا الذى يدافع يقول: ماذا فعل (فلان)؟ لا يوجد خطأ فى كل ما فعله... فهو بهذا الكلام يشجع غيره أن يفعل مثله مادام الفعل غير مدان.

هنا و يواجهنا سؤال لابد من الإجابة عليه، وهو:

لماذا إذن ينصحنا القديسون أن ندافع عن المخطئين؟

للإجابة على هذا السؤال ينبغى أن نعرف تماماً ما هى نوعية الدفاع؟ ليس معنى الدفاع أن نقلب الموازين الروحية، ونقول عن الخطأ إنه صواب. كلا بلاشك. فقد قال الكتاب: و يل لمن يقول عن المرّ أنه حلو (أش ٥: ٢٠).

وإنما الدفاع هنا ينصب على الظروف المحيطة، وليس على كنه العمل ذاته.

كأن ندافع بسبب أن الحرب كانت ثقيلة عليهم، مع ضعف الطبيعة البشرية، كما نقول فى أوشية الراقدين «إذ لبسوا جسداً، وسكنوا فى هذا العالم» وإنه «ليس أحد بلا خطية، وإن كانت حياته يوماً واحداً على الأرض» أو نعتذر عنهم بمكر الشيطان المحارب وخديعته وكثرة حيله.

أو ندافع بأنهم فعلوا ذلك جهلاً ....

كما قال السيد المسيح عن صالبيه «لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون» (لو٢٣: ٣٤). وقال القديس بولس الرسول «لأنهم لو عرفوا، لما صلبوا رب المجد» (١كو٢: ٨).

أو نقول إنه كان فى حالة إثارة، بحيث لم يستطع أن يملك نفسه، أو كان واقعاً تحت إغراء أو ضغوط أو عثرة...

ولكن لا يمكننا أن ننفى الخطأ، أو ندعى أنه ليس خطأ. بل نتحدث فقط عن

الظروف المحيطة. تماماً كالمحامى الذى لا ينفى التهمة، أو الركن المادى منها، و يتحدث فقط عن الركن الأدبى أو الحالة النفسية أو العقلية للمتهم.

ولا يكون القصد سوى التخفيف من وقع الخطأ بدافع الرحمة، وليس انكار وجود الخطأ، كأن يقول إنسان مثلاً «كلنا تحت الزلل» أو «كلنا معرضون للخطأ». أو كما دافع بعضهم عن خطأ نُسب إلى شخص كبير، فقال: هذه هى الطبيعة البشرية. والكتاب يحكى عن نبى عظيم جداً مثل إيليا فيقول:

«إيليا كان إنساناً تحت الآلام مثلنا» (يع ٥ : ١٧).

مع إنه صلى صلاة أن لا تمطر السماء ثلاث سنين وستة أشهر فلم تمطر، ثم صلى بعدها فأعطت السماء مطراً (يع ٥ : ١٧، ١٨).

و يقع فى محاولة تبرئة المذنب من يتملق الكبار!

محاولاً أن يبرىء أخطاءهم مهما كانت جسيمة، باسلوب بعيد عن الحق. وبسبب هذا التملق، يسقط كثير من الكبار فى أخطاء و يستمرون فيها، ولا تبكتهم ضمائرهم، بل قد يفتخرون بما وقعوا فيه من أخطاء!! و يدفعهم من يبرئهم إلى العزة بالأثم وإلى سياسات خاطئة، و يشترك معهم فى أعمالهم الشريرة.

إن كان الذين يصمتون على الخطأ، ولا يخرجون الخبيث من وسطهم، يدانون كما دان بولس الرسول أهل كورنثوس. فماذا نقول إذن عن الذين يحامون عن الخطأ و يدافعون عنه و يبررونه؟ لاشك أن هؤلاء دينونتهم أعظم.



شروط الإدانة غير الخاطئة

١ - أن تصدر من شخص مسئول :

وقد شرحنا هذا الأمر من قبل . ويبقى أمامك فى كل مرة تدين فيها غيرك : أن تسأل نفسك قائلاً «من أقامنى قاضياً» (لو١٢ : ١٤) أو من أقامنى معلماً ؟ فإن وجدت أنك فى موضع المسئولية فعلاً ، فلا مانع ...

٢ - الإدانة تقوم على أساس من المعرفة :

إن الله هو «ديان الأرض كلها» (تك١٨ : ٢٥)، لأنه بالإضافة إلى سلطانه الإلهى ، يوجد عدل فى دينونته لأنها قائمة على أساس من المعرفة الشاملة الأكيدة ، فهو العارف بكل شىء ، وهو الفاحص القلوب ، والقارىء الأفكار ، ويعلم ما يجول فى مشاعر الإنسان ونياته ، ويعرف الخفيات والظاهرات .

وقضاة الأرض يبنون عدلهم فى أحكامهم على أساس من التحقيقات ، توصلهم إلى ما يمكن الوصول إليه من المعرفة : تحقيقات فى مراكز الشرطة والنيابة والمحكمة ، مع فحص الأدلة ، وسماع الشهود ومناقشتهم ، واعطاء فرصة كاملة للدفاع وللرد على أدلة الأتهام .

أما أنت ، فما هى معرفتك حتى تحكم ؟!

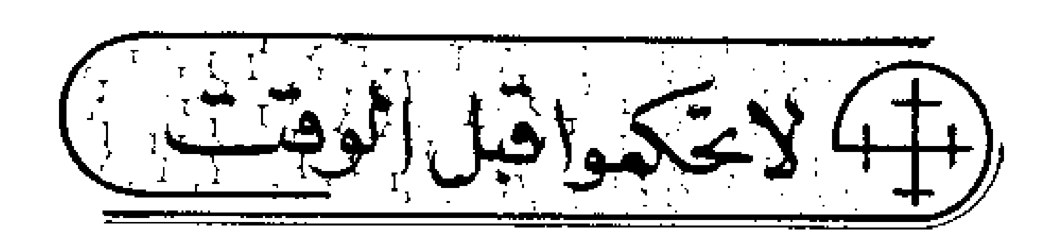
ألا يحدث أن يدين الإنسان غيره عن طريق السماع والشائعات أحياناً ، وعن طريق الظن فى أحيان أخرى ، وبدون سماع دفاعه عن نفسه فى كل الحالات تقريباً !! ودون معرفة بظروفه ، وقصده ، وأسباب ما حدث منه ...

وربما لو اتيح لنا أن نعرف الحقيقة كاملة ، لندمنا على أحكامنا واعتذرنا عنها !

من أجل هذا لا يجوز لك أن تدين إنساناً فى تصرف ما ، بدون أن تبحث وتفحص وتتحقق وتعطيه فرصة أن يجيب عن نفسه . وليس من اللائق أن تلقى أحكامك بسرعة ، وتحكم على شخص قبل أن يحكم الله عليه... وما أصدق قول الرسول :

« لا تحكموا فى شيء قبل الوقت » (١كو٤ : ٥) .

و يتابع الرسول كلامه فيقول «حتى يأتى الرب الذى سينير خفايا الظلام ، و يظهر آراء القلوب . وحينئذ يكون المدح لكل واحد من الله » .



قال القديس أوغسطينوس فى تفسير هذه الآية (١كو٤ : ٥) :

هناك خطايا واضحة قال عنها الرسول «خطايا بعض الناس واضحة تتقدم إلى القضاء » (١تى٥ : ٢٤) . هذه الخطايا الواضحة إذا صدر عنها حكم ، لا يكون حكماً متسرعاً . ولكن هناك أموراً أخرى غير واضحة ، سيعلنها الله حينما يكشف ما فى القلوب و ينير خفايا الظلام (١كو٤ : ٥) . عن هذه الأمور قال الكتاب «لا تحكموا قبل الوقت » .

لأن تصرفاً معيناً قد يبدو لنا أنه خطأ . ولكن حينما يكشف الله نيات القلوب يظهر أنه تصرف سليم . والعكس صحيح : تصرف يبدو سليماً ، وحينما يكشف الله نيات القلوب يظهر أنه خطأ . فلا تحكموا إذن قبل الوقت فى هذه الأمور التى نيتها غير واضحة ، والتى ستبقى مخفاه ، إلى أن يعلنها الله .

إذن حكمنا هو فى الأمور الواضحة . أما غير الواضحة فنتركها لله ، إلى أن يعلنها .

٣ - لا يجوز أن تحكم على أحد وأنت مثله ، أو أسوأ :

وهذا واضح من قول السيد المسيح للذين طلبوا رجم المرأة المضبوطة فى ذات الفعل . فمع أن الخطيئة كانت واضحة وفاضحة وثابتة ، إلا أنه قال لهم « من كان منكم

بلا خطية، فليرمها أولاً بحجر» (يو٨ : ٧). فانصرفوا جميعاً وتركوها لأن الكل خطاة. والمثل يقول «من كان بيته من زجاج، لا يقذف الناس بالحجارة».

لذلك فالإنسان المتواضع لا يدين أحداً...

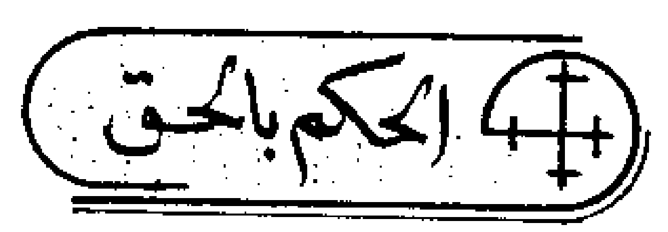
إنه ينصت فى انسحاق قلب إلى قول السيد المسيح «لماذا تنظر القذى الذى فى عين أخيك. وأما الخشبة التى فى عينك فلا تفطن لها ؟!... يا مرائى اخرج أولاً الخشبة من عينك. وحينئذ تبصر جيداً أن تخرج القذى من عين أخيك» (متى٧ : ٣-٥).

والمتضع إذا اضطر أن يدين، يفعل ذلك باتضاع.

لا بعجرفة، ولا بكبرياء، ولا باحتقار وازدراء لغيره. و يكون موضوعياً، فلا يجرح أحساس غيره ولا يخجله. وكما قال الرسول «أيها الأخوة إن إنسيق إنسان، فأخذ فى زلة، فاصلحوا أنتم الروحانيين مثل هذا بروح الوداعة، ناظراً إلى نفسك لئلا تجرب أنت أيضاً. احملوا بعضكم اثقال بعض» (غل٦ : ١، ٢).

٤ - ولا تكون الإدانة بحقد ولا بغيظ ولا بكراهية :

حتى إن كان الذى يدين، يفعل ذلك بسلطان وعن معرفة، إلا أن ادانته إذا ما اختلطتبالكراهية والحقد تصبح ادانة خاطئة. لأن «المحبة لا تفرح بالاثم، بل تفرح بالحق» (١كو١٣ : ٦).



سئل القديس باسيليوس الكبير عن معنى قول الرب «لا تدينوا لكى لا تدانوا» (متى٧ : ١)، فأجاب : قال الرب فى موضع آخر :

«لا تنظر إلى الوجوه ... العدل العدل تتبع لكى تحيا» (تث١٦ : ١٩، ٢٠).

«لا تنظر إلى الوجوه» أو «لا تأخذ بالوجوه» معناها «لا تحاب». إياك والمحاباة، بل أحكم بالعدل والحق. وهنا قال القديس :

إن الله لم يمنعنا عن الإدانة جملةً، بل أمرنا أن ندين بالحق، فى الوقت المناسب وعن عمل دون عمل.

فالأشياء التى لم يحدّ الكتاب لها حداً، بل وضعها تحت سلطان الإنسان مثل الأكل والشرب وغير ذلك، قال الرسول فيها «لماذا تدين أخاك...؟» (رو١٤: ١٠) وأيضاً «لا نحاكم بعضنا بعضاً» (رو١٤: ١٣).

«أما الأمور التى لا ترضى الله... فقد لام الذين لا يدينون عليها»

يقصد لام المجموعة كلها The whole community، لأنه كان ينبغى عليها أن تدين الشخص المخطىء. وذكرهم بقول الكتاب «اعزلوا الخبيث من وسطكم»(١كو٥: ١٣). فربما من أجل خطية إنسان واحد، يحل غضب الله على المجموعة كلها.

والمجموعة مسئولة عن أن تنظف نفسها، وتعزل الخبيث من وسطها، لئلا يحل غضب الله على الكل بسبب خطية واحد.

لقد كادت السفينة كلها أن تغرق بسبب خطية واحد هو يونان، بينما باقى ركابها ما كان لهم ذنب. وأيام يشوع بن يونان، غضب الله على المجموعة كلها بسبب خطية واحد هو عخان بن كرمى (يش٧).

فمن الحق أن تدين الشر الذى فيها، وتخرجه خارجاً، لئلا تهلك كلها بسببه.

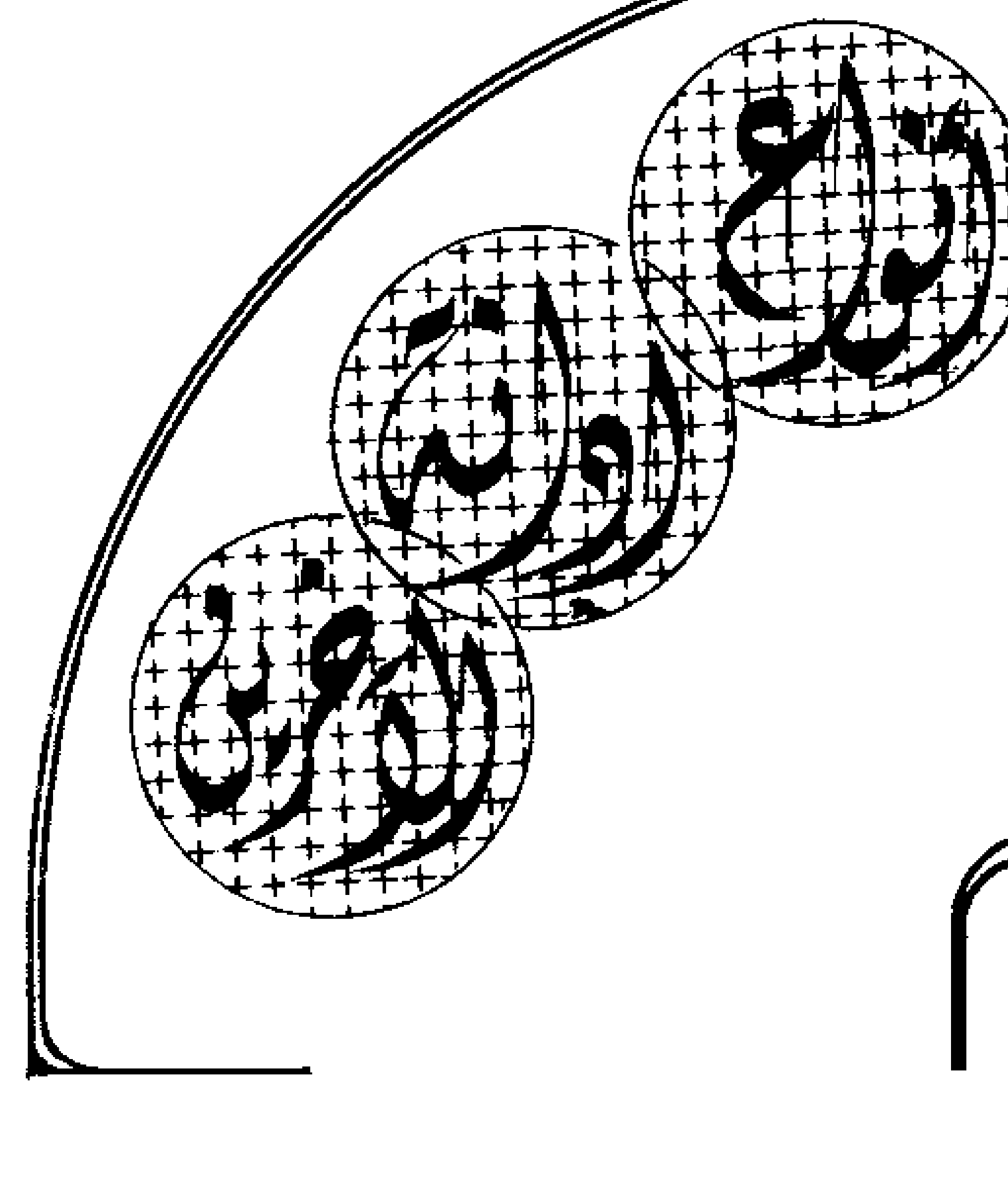
ولكن هذه الخطوة تحتاج إلى حكمة.

قال القديس باسيليوس إن هناك بعض الأمور التى ينطبق عليها قول الكتاب:

غيرة بيتك اكلتنى، لأن اعداءك نسوا وصاياك» (مز١١٩).

إنها غيرة لله. ولابد للإنسان أن يفرق بين ما إذا كان الدافع للإدانة هو الغيرة المقدسة، أم أن الدافع هو حقد شخصى، أو كراهية شخصية، أو شماتة بإنسان مخطىء. فإن كانت هى الغيرة المقدسة- وليس تكون الإدانة مقبولة. ولكن...

هذه الغيرة ينبغى أن تكون حسب المعرفة (رو١٠: ٢).



الإدانة بالفكر

الإدانة باللسان

الاغتياب

النميمة

الإدانة

التشهير

الإدانة بالمطبوعات والتسجيلات الصوتية

الإدانة بالسماع

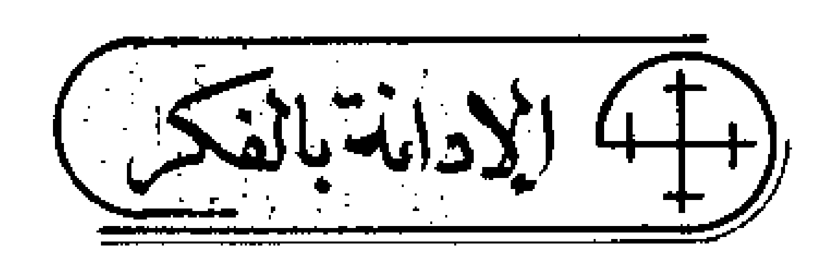
كلام يسهل الإدانة

أنواع أخرى من الإدانة

إدانة الآخرين ليس لها أسلوب واحد، ولا تكون بالكلام و باللسان فقط، إنما قد تبدأ أولاً بالفكر، أو تحدث عن طريق السماع. أو قد تكون مجرد شعور فى القلب، يتطور من حال إلى حال. وربما تصدر عن طريق الملامح والحركات.

وقد تحدث الإدانة بطريق غير مباشر، وقد تأخذ صوراً مختلفة، وتصل إلى درجات خطيرة، كلما ارتبطت بمشاعر أخرى.

وسنحاول أن نتناول كل هذه الأنواع والدرجات بالتفصيل..



الإدانة بالفكر، ربما تكون أخف ألوان الإدانة، لأنها قاصرة على الشخص الذى يدين، ولم تنتشر فى الخارج.

ولكن خطورتها أنها نقطة البدء، وانها المصدر لكل الأنواع الأخرى من الإدانة. لذلك يجب الانتصار عليها قبل أن تتطور، وقبل أن تسيء إلى آخرين، وتنتقل من درجة إلى أخرى.

على أن الإدانة بالفكر قد تكون أولاً مجرد حرب روحية.

وقد ينتصر عليها الإنسان و يطردها من ذهنه، قبل أن تصبح خطية. أما إذا ترك فكر الإدانة داخله، وبدأ يقتنع به، ثم خلطه أيضاً بمشاعره، فحينئذ لا تكون الإدانة مجرد حرب، لأنها لاقت قبولاً فى الداخل.

وقد لا يكتفى الإنسان بالرضى بفكر الإدانة، وإنما يضيف عليه تصورات وتخيلات من عنده، لتكبيره وتجسيمه.

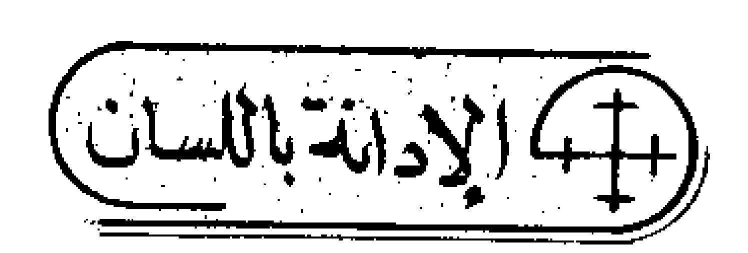
ويحدث هذا كثيراً، إن كان لا يحب الشخص الذى يدينه، أو إن كان يكرهه أو يحقد عليه... وحينئذ لا يكتفى بأن يجعل فكر الإدانة يستقر و يستمر... ولا يكتفى بالتفكير فى أخطاء الشخص التى أمامه، إنما يخترع فى ذهنه قصصاً يمكن أن تحدث مع هذا الإنسان: كأن يقع فى أخطاء أخرى، و ينكشف فيها أمام الناس، أو أن يضبطوه فى كذا وكذا، و ينفضح، أو يُحاكم.

وهكذا يكون الفكر مجرد شاشة يعرض عليها القلب ما فى داخله من مشاعر خاطئة وتصورات بشعة.

المفروض أن توقف فكر الإدانة بمجرد أن يخطر على ذهنك. ولكنك إن وصلت إلى هذا الحد، فإن الأمر معك لا يقتصر على علاج الإدانة، وإنما بالأكثر معالجة أسبابها، والتخلص مما فى القلب من مشاعر خاطئة...

والإدانة بالفكر تتبادل الموقع مع الإدانة بالقلب:

فالفكر حينما يدين إنساناً، يوصّل مشاعر خاصة بهذه الإدانة إلى القلب. والقلب إذا وجدت فيه أمثال هذه المشاعر، يصدّر أفكاراً إلى العقل. وهكذا يغذى كل منهما الآخر.



الإدانة باللسان

خطورتها أن الإدانة تخرج من فكر أو لسان صاحبها، لكى تصب فى آذان وأفكار ومشاعر آخرين.

إن الإنسان الذى يدين بالفكر، إن تاب عن خطيته ينتهى الأمر عند هذا الحد. أما الذى يدين بلسانه و يسمعه غيره و يتأثر به، فإن تاب لا تكون إدانته قد انتهت، لأنها لا تزال موجوده فى فكر غيره وفى معرفته.

وما يدرينا إلى كم شخص قد وصل هذا الكلام.

على أن الإدانة باللسان، هى أيضاً متعددة الأنواع، منها:



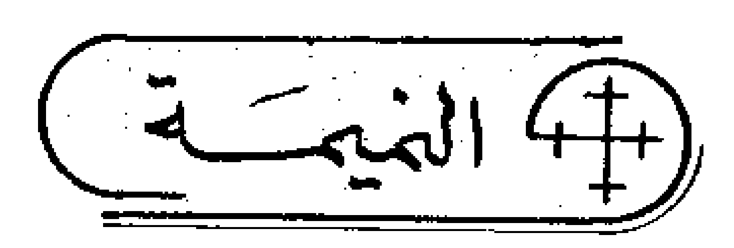
ومعناها أن إنساناً يتكلم بالسوء على غيره فى غيبته . وربما لا يجرؤ أن يقول شيئاً من هذا فى حضرته . وقد يحرص كل الحرص أن يظل كلامه مستوراً لا يصل إطلاقاً إلى هذا الشخص . ومن أمثلة (الغيبة) ما يقال عن الرؤساء والكبار. وعلى رأى المثل «الملك من هيبته، يُشتم فى غيبته» ...

ومن أضرار الاغتياب أن الشخص الذى يُساء إليه سراً ليست لديه الفرصة للدفاع عن نفسه، لأنه لا يعرف !

فإن كان الذين يسمعون، من النوع الذى يصدق كل ما يسمعه، ففى هذه الحالة تسوء سمعته، وهو لا يدرى، ودون أن تكون أمامه لشرح الحقيقة، وتوضيح الأمور وشرحها وتبرير ما يُنسب إليه .

والغيبة تدل على أن صاحبها تنقصه الشجاعة والجرأة ...

بل قد تدل على أنه يتصف بالرياء والنفاق، إن كان يقول كلاماً عكس هذا فى حضرة من يسيء إليه باغتيابه ...



وهى مسك سيرة الناس، والتحدث عن اخطائهم، أو نسبة أخطاء إليهم . والنميمة مرض منتشر بين الكثيرين . فإذ لا يجدون شيئاً نافعاً يتحدثون فيه، يجعلون أخبار الناس مادة مفضلة لأحاديثهم، وبخاصة ما تحمله هذه الأخبار من انتقادات وتحليل للمواقف، وشرح الأخطاء والنقائص .

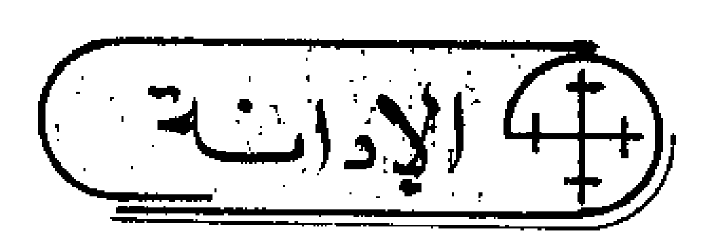
ولذلك فمن ضمن أسباب النميمة الفراغ .

فالإنسان المشغول باستمرار، لا يجد وقتاً يتحدث فيه عن أخبار الناس واخطائهم. والسيدة العاملة قد تكون أقل وقوعاً فى هذه الخطية من السيدات الجالسات فى البيوت، ولا حديث لهن إلا عن أخبار الجيران. والتلميذ فى أيام الامتحانات، وهو منشغل بدروسه ومراجعتها، لا يجد وقتاً يجلس فيه مع زميل يتحدثان فى مساوىء الآخرين. وإذا فتح له هذا الموضوع لا يجد دافعاً داخلياً للاسترسال فيه...

لذلك اشغل نفسك، حتى لا تقع فى الإدانة والنميمة.

وأيضاً من أسباب النميمة معاشرة النمامين.

لأنهم يفتحون لك أمثال هذه الموضوعات. وإن فتحتها أنت، يشجعونك على الاسترسال فيها. ومع هؤلاء النمامين، تشعر أن مسك سيرة الناس شىء عادى، لا غرابة فيه. بل تشعر أنه مجال للتسلية، وربما تجد فيه متعة إن كان مختلطاً بروح المرح، فتستمر دون أن يستيقظ ضميرك، ودون حرج...



ومعناها من جهة اللغة الحكم على الغير بأنه مذنب...

ولكن الآباء فى بستان الرهبان يفرقون بين النميمة والإدانة، فى أن النميمة قد تحمل الحديث عن خطأ معين قد حدث، بينما الإدانة تحمل الحكم على أخطاء ثابتة فى الشخصية.

وهناك يوجد فرق بين الإدانة الجزئية، والإدانة الكلية.

فمثلاً يوجد فرق بين قولك إن فلاناً قد كذب، فى موقف معين، وبين قولك إنه شخص كذاب، أى أن الكذب جزء من عناصر شخصيته. وبالمثل يوجد فرق بين قولك إنه قد جبن أو خاف فى إحدى المناسبات، وبين قولك بصفة عامة إنه جبان، أى أن الجبن من مكونات شخصيته...

كذلك هناك فرق بين الإدانة الفردية والإدانة الجماعية.

فهناك إنسان قد يقع فى إدانة شخص ما وإنسان آخر قد يتطور به الأمر إلى إدانة مجموعة معينة، أو مدينة بأسرها، أو شعب كامل. وقد يدين البشرية فى نواح معينة.

مثال ذلك يقول لك: المدينة الفلانية تشتهر بالبخل، أو الشعب الفلانى يتصف بالبرود، أو الشعب الفلانى يتصف بالتهور. وهكذا يسم الشعب كله بصفة واحدة..

والمعروف أنه قد يوجد فى أسرة واحدة أخان أو شقيقان، كل منهما له طبع مخالف للآخر.

قايين طبعه غير هابيل، وهما شقيقان، وكذلك طبع يعقوب يختلف عن طبع عيسو وهما توأمان. وبالمثل سليمان غير ابشالوم، وهما شقيقان... وهكذا فى الأسرة الواحدة طباع متنوعة. فلا نستطيع أن نحكم على طباع شخص بصفات أقربائه.

إن كان الأمر هكذا، فما معنى الحكم على مدينة أو شعب بحكم واحد وربما يكون المقصود هو الصفة الغالبة. ومع ذلك فقد لا توجد هذه الصفة عند البعض.

وقد يتأثر إنسان بحادث معين وقع له مع شخص ما، لكى يصدر حكماً على هذا الشخص يشمل حياته وصفاته كلها.

بينما كل شخص قد تمر عليه فى حياته فترة ضعف، أو فتور، أو فترة يكون فيها تحت ضغطات معينة، أو فى حالة نفسية مؤقتة نتيجة لأسباب خاصة... ولا يمكن أن تعبر تصرفاته فى مثل هذه الفترة عن الصورة الثابتة لشخصيته... ولكن ويل له من حكم من رآه فى تلك الفترة، أو فى أحد مواقفها بالذات.

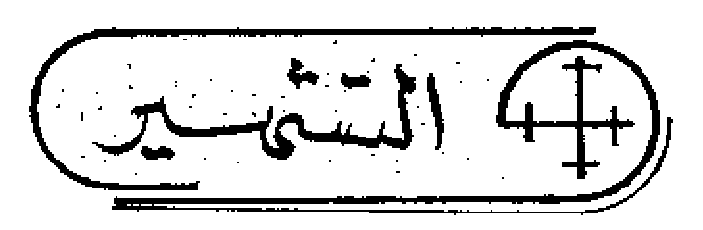
ومن أمثلة الإدانة العامة: إدانة اليهود للأمم.

وإدانتهم أيضاً للسامريين، وإدانتهم لكل من يتعامل مع هؤلاء وأولئك. وهكذا تعجبت المرأة السامرية من حديث السيد المسيح معها، بينما «اليهود لا يعاملون السامريين» (يو٤: ٩) تعنى هنا الشعب كله، وليس شخصاً واحداً بالذات. وهكذا نرى أن الإدانة تطورت إلى المقاطعة، ولم تعد مجرد كلام إدانة.

ومن أمثلة الإدانة العامة أيضاً: إدانة الفريسيين للعشارين.

ربما كانت الصفة الغالبة فى العشارين هى الظلم، ولكن ليس شرطاً أن يتصف بها كل عشار. فقد يوجد عشار تائب... ونلاحظ من عمق إدانة الفريسيين للعشارين، أن الفريسى وقف يدين العشار حتى أثناء صلاته. فأشار إلى العشار المنسحق القلب وقال «أشكرك يارب، لأننى لست مثل سائر الناس الظالمين الخاطفين الزناة، ولا مثل هذا العشار...» (لو١٨: ١١).

نوع آخر من أنواع الإدانة هو:



ومعناه أن يجعل أخطاءه مشهورة عند الآخرين.

والذى يقع فى التشهير، لا يبالى بأن يحدث كل أحد عن أخطاء من يسىء إليه، فينشر تلك الأخطاء، أو ما يرى أنه أخطاء، فى أوسع نطاق ممكن، بلا حرص إطلاقاً على مشاعر وسمعة الشخص الذى يتحدث عنه...

وتزداد خطية التشهير بشاعة، على قدر اتساعها وانتشارها.

ولا تقتصر على الأشخاص الذين يتحدث معهم هذا الذى يدين غيره، وإنما تمتد أيضاً إلى الذين ينقل إليهم سامعوه نفس الكلام ونفس الإساءات... وما أدرانا ربما كل منهم يضيف شيئاً من عنده، من استنتاجاته أو مفهومه الخاص. ويصبح الأمر معروفاً لدى عدد كبير جداً يصعب إحصاؤه...

وربما المخطىء يتوب، ولكن الشهرة الرديئة تظل تتبعه وتتعبه.

بل ربما هذه الشهرة الرديئة تكون عائقاً أمامه فى التوبة... هذا إذا كان مخطئاً بالحقيقة... لأنه فى أحيان كثيرة لا يكون التشهير مبنياً على أساس من الحق والصدق والعدل.

فربما يبنى التشهير على شائعات أو إدعاءات.

وما أسهل أن يحدث هذا من جانب الحاقدين أو الحاسدين أو الظالمين أو أصحاب الأغراض ... !

إن آخاب الملك عندما أراد أن يستولى على حقل نابوت اليزرعيلى، دبرت إيزابل زوجته مؤامرة للإيقاع بنابوت، بأن يشاع عنه أنه جدف على الله، وأرسلت رسائل إلى شيوخ وأشراف مدينته بذلك، ونادوا بصوم، واجلسوا نابوت فى رأس الشعب، وشهروا به تشهيراً انتهى إلى رجمه ... وكان بريئاً ... (١مل ٢١).

ولعل تشهيراً ظالماً مثل هذا حدث ليوسف الصديق، انتهى إلى سجنه. بل أن تشهيراً ظالماً آخر أشاعه الكتبة والفريسيون ضد السيد المسيح نفسه، انتهى إلى صلبه ...

وإن كانت كل هذه الأمثلة ثبتت براءتها، فإن تشهيرات أخرى قد لا تنال فرصة لإثبات براءتها ...

ومن خطية الإدانة بالتشهير، ما يسمونه فى مواد القانون باسم «القذف العلنى». وأحياناً لا يكون هذا التشهير باللسان، وإنما عن طريق الصحافة مثلاً، حيث تقوم حملة صحفية عنيفة ضد شخص ما، أو ضد هيئة معينة، أو بلد من البلاد، وتؤدى هذه الحملة إلى سوء سمعة واسعة النطاق، أو إلى فضيحة عالمية. وبعض هذه الحملات انتهت إلى سقوط رئيس دولة، أو سقوط وزارة، أو إقالة وزير ... فكم بالأولى يكون تأثيرها على شخص لا يملك دفاعاً عن نفسه ؟

وهذا يقودنا إلى نوع آخر من الإدانة وهو:



وهذه تكون أكثر خطراً، لأنها أوسع إنتشاراً.

فقد لا تكون الإدانة باللسان، وإنما عن طريق منشور مطبوع تُوزع منه نسخ بعشرات الآلاف وتنتشر، أو تكون عن طريق كتاب مطبوع أو نبذة. أو تكون هذه الإدانة فى

مقال ينشر فى الصحف و يسىء إلى إنسان أو إلى مجموعة من الناس . أو صورة أخذت بطريقة ما ، وتُطبع وتنشر بقصد الإساءة .

و يشبه هذا النوع ، خطابات يرسلها شخص إلى آخرين ، تحوى أخباراً فيها إساءة إلى إنسان ما ، وفيها إدانة له . والقصد بها هو التشهير.

و يدخل فى الإدانة باللسان : التسجيلات الصوتية .

فهى لسان مستمر فى الكلام ، كلما شئنا له أن ينطق . وهذا النوع أكثر ثباتاً وأنتشاراً من كلمة يقولها شخص فى وقت ما ، دون تكرار لها . وهو أيضاً من الوثائق المحفوظة التى يمكن أستخدامها فى أى وقت ، ويمكن أن تطبع منها نسخ عديدة تساعد على أنتشار ما يراد سماعه .

وتكون الإدانة باللسان صعبة ، إن صدرت من فم كاهن .

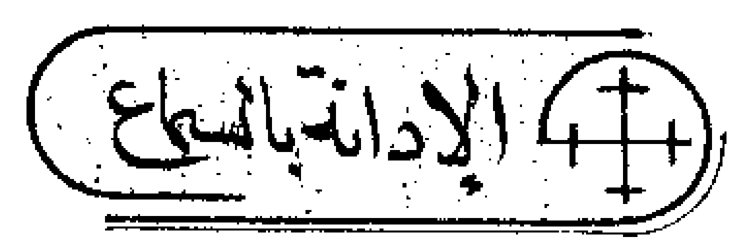
لأن الناس يميلون بطبيعتهم إلى تصديق الآباء الكهنة وعدم الشك فى أقوالهم . فيأخذون مثل هذه الإدانة كحكم كنسى ثابت . كما يصبح من الصعب على من أصابته هذه الإدانة أن يدافع عن نفسه ، و يشكك فى قول الكاهن .

وصعوبتها أيضاً أن كل إنسان ينتظر من الكاهن أن يستر عليه ، لا أن يعلن أخطاءه ..

ينتظر أن يسمع منه كلمة بركة لا كلمة دينونة ، كما قال السيد المسيح للمرأة الخاطئة « ولا أنا أدينك . اذهبى ولا تخطئى أيضاً » (يو٨ : ١١) . وكما قال أيضاً :

« لم آتِ لأدين العالم ، بل لأخلص العالم » (يو١٢ : ٤٧) .

ولكن يستثنى من هذه القاعدة من جهة الرعاة والكهنة ، الإدانة اللازمة لسلام الكنيسة . كإدانة الهراطقة والمبتدعين ، والذين هم خطر على الجماعة . وكذلك الخارجين عن نظام الكنيسة . كما قال القديس بولس لتلميذه تيموثاوس الأسقف **« الذين يخطئون ، وبخهم أمام الجميع ، لكى يكون عند الباقين خوف »** (١تى ٥ : ٢٠) . ومن أجل حفظ النظام العام فى الكنيسة ، كانت إدانة بطرس الرسول لحنانيا وسفيرا (أع ٥) .



الإدانة بالسماع

يقول الآباء إن السامع شريك للمتكلم، لأنه قد أعطاه فرصة ليتكلم ويقول ما عنده.

وقد نصح الآباء بعدم السماع. فقال القديس موسى «لا تمشِ مع النمام... ولا تصدق كلام نميمة فى أى إنسان».

والسامع هنا يكسر وصية البعد عن المعثرات.

لأنه فى سماع كلام الإدانة أو النميمة عثرة. والمفروض أن تبتعد عن العثرات. فإن سمعت كلام أشخاص يمسكون سيرة الناس، على الأقل تشوّه سمعك وفكرك وقلبك. وإذا صدقت ما تسمعه، بدون فحص، فقد تتغير علاقتك بالآخرين. والسماع يولّد لك إدانة بالفكر...

★ وقال الأنبا موسى أيضاً:

«أياك أن تسمع بسقطة أحد أخوتك، لئلا تكون قد دنته خفية»

هذا إذا صدقت ما سمعته عنه. أما إن لم تصدقه، فعلى الأقل تكون قد دنت من يتكلم عنه. وفى كلا الموقفين تصير واقعاً فى الإدانة.

وربما الشخص الذى سمعت عنه سوءاً، لا تدينه الآن، وترفض قبول ما سمعته عنه. ولكن الأخبار والأفكار تتركز فى عقلك الباطن، لكى تظهر بعد حين...

★ وقال القديس الأنبا إشعياء:

«إن سمعت أخاً يدين آخر... فلا تستح منه أو توافقه... لئلا يغضب الله.. بل قل باتضاع: اغفر لى يا أخى، فإنى إنسان شقى... وهذه الأمور التى تذكرها أنا منغمس فيها، ولا احتمل ذكرها».

وطبعاً ليس المقصود أن تقول هذا الكلام حرفياً، إنما :

يكفى أن تهرب من السماع بأية وسيلة تناسبك.

يمكن أن تغير مجرى الحديث إلى موضوع آخر، أو تسأل اسئلة تنقله إلى جهة أخرى، أو أن تختم الكلام بعبارة «نصلى من أجله ومن أجل أنفسنا، ليرحمنا الرب جميعاً»...

أو أن تقول «هذه السقطات التى اسمع عنها تدل على أن الشيطان نشيط وقوى. حقاً ما أعجب حيل الشياطين..». وتحوّل الحديث إلى حيل الشياطين.

★ قال الأنبا اشعياء أيضاً «لا تقبل أن تسمع عن خطايا أخيك أو أن تلومه»...

★ وهذه النصيحة نجدها أيضاً فى المزمور ٥١.

حيث يقول «يارب من يسكن فى مسكنك، أو من يصعد إلى جبل قدسك، إلا السالك بلا عيب، الفاعل البر، الذى يتكلم بالحق فى قلبه... ولا يصنع بقريبه سوءاً، **ولا يقبل عاراً على جيرانه»**.

أى لا يقبل أن يسمع عنهم كلمة سوء. يرفض أن يسمع.

فالمفروض فيك إذن: أنك لا تتكلم بكلام نميمة أو إدانة ضد إنسان، ولا تسمع مثل هذا الكلام.

★ وهكذا يقول القديس مارأوغريس :

الذى يسمع بالردىء، شريك للذى يتكلم بالردىء. وهما متعاونان معاً فى إهلاك قلبيهما...

ولعله يقصد الذى يكون راضياً بهذا السماع، ومعطياً فرصة للمتكلم به أن يقول وأن يزيد. أما الرافض السماع، فحتى إن كان موجوداً بجسده، فإنه لا يحب أن يصغى بأذنيه، ولا يعطى سمعه للكلام، بل يشغل ذهنه بأمور أخرى. ولا يقبل ما يسمعه. ولا يعاود التفكير فيه، ولا يعطيه عمقاً فى داخله.

★ يكمل القديس مار أوغريس حديثه فيقول :

« فسدّ أذنيك الآن عن قول الذين يقعون فى غيرهم ، لئلا تأثم معهم وتعود ذاتك الأعراض الشريرة » .

« تأثم معهم » لأنك رضيت أن تجلس فى مجلس من هذا النوع ، ورضيت أن تضيع وقتك ، وتفقد نقاوة فكرك ، عن طريق هذا السماع . كما أنه لو استمر بك الأمر فى أمثال هذه المجالس ، سوف تتعود هذا الأسلوب من الأحاديث . وربما تتطور من السماع إلى الاشتراك فى الكلام .

★ أما مار اسحق ، فإنه يشبه الإدانة بالنار ، و يقول :

« اعلم أنه إن برزت منك نار واحرقت آخرين ، فإنه الله يطالبك بأنفس المحترقين » .

هذا إذا كنت أنت المتكلم . واستطعت أن تتلف بساطة الآخرين ونقاوتهم بما تقوله من كلام سيء عن أخوتهم . وهكذا تكون قد أعثرتهم ، يطالبك الله بأنفسهم ... ولكن ماذا إذا لم تكن أنت المتكلم بل السامع ؟ يقول مار اسحق :

« وإن كنت ياهذا ما ألقيت ناراً ، ولكن وافقت راميها ، وارضاك فعله ، فأنت تشترك معه فى الدينونة » .

وانصافاً للحق ، لعلنا هنا نقسم السامعين إلى أنواع :

أ - نوع يسمع الكلام الردىء وهو متضايق ، و يريد أن يبتعد ، ولكنه غير مستطيع خجلاً أو أدباً .

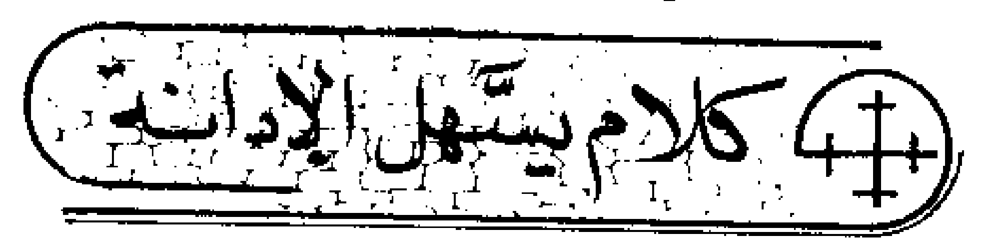
ب - نوع يسمع كلام الإدانة ، و يستطيع أن يهرب من الكلام وسماعه ، أو من المكان كله ...

ج - نوع يسمع ، وينصت جيداً ، و يناقش الكلام فى داخله بعقل وحكمة وفحص ، و يقبل ما يمكن قبوله ، و يرفض الباقى ، كمجرد أخبار ، دون أن يحكم فى داخله على أحد ، منتظراً مجالاً أوسع للفحص والتحقيق .

د - نوع يسمع كلام الإدانة و يقبله و يتأثر به ، و يتغير به فكره وقلبه ، و يظل صامتاً .

هـ - نوع يسمع كلام الإدانة، ويتجاوب معه بفكره، ويشترك فيه. وهنا يخطىء بالسماع وبالكلام وبالفكر أيضاً.

و - وهناك نوع آخر أصعب من كل هؤلاء تحت عنوان



قد لا يتلفظ إنسان بكلمة إدانة. ولكنه يسأل اسئلة، أو يقول كلاماً يسهل الإدانة، عن قصد وعن رغبة.

أى أنه لا يدين بلسانه، ولكنه يفتح الباب للإدانة..

ربما يكون سمع بأن شخصاً ما قد وقع فى خطية معينة، أو على وشك أن تدور حوله فضيحة ما... فيسأل «أين فلان؟ ما هى أخباره. لم أره من مدة، وأحب أن أطمئن عليه»... من يستطيع أن يقول أن هذه كلمات إدانة.. ولكن:

المهم ليس فى الكلام الذى يقوله، إنما فى الرد الذى يتوقعه.

لأن سامعه ما أن يتلقى هذا السؤال، حتى يفتح ملف ذلك الشخص المراد أن يُساء إليه، ويحكى حكايات كلها إدانة وسوء سمعه، ويُخاض فى سيرة هذا الإنسان وفيما ينسب إليه من اتهامات... ويكون صاحب السؤال هو السبب فى كل هذا، يحمل مسئولية الإدانة...

وقد يتظاهر بالدفاع عنه، بطريقة تعمق الإتهام وتوضحه:

فيقول مثلاً «من غير المعقول أن يحدث كل هذا من هذا الأخ. أنا لا استطيع مطلقاً أن أصدق». وبهذا الكلام الذى يبدو فى ظاهره دفاعاً، يفتح الباب أمام الأدلة والاثبات التى تؤكد كل ما ينسب إليه... وتنتهى الجلسة بإدانة هذا الأخ إدانة تدعمها الأحداث والبراهين. وسبب كل هذا الاسئلة التى قدمها هذا الزميل ففتح باب السيرة، وفتح أبواباً للتفاصيل.

وهكذا وقع فى خطية إدانة، تصحبها غالباً رياء...

فهو يتظاهر أمام الناس أنه لم يخطيء إلى ذلك الشخص، بل كان يدافع عنه، بينما كان قصده غير هذا... وما أسهل أن يقول «من يستطيع أن يمسك عليّ خطأ قلته فى سمعة هذا الأخ ؟!

بالأضافة إلى خطية العثرة، كان يخطيء، ويحمّل غيره المسئولية

وما أسهل أن يذهب إلى أب اعترافه ويقول له «صدقنى يا أبى لم أقل كلمة إساءة واحدة. الإساءات صدرت ضده من فلان، وأنا كنت أدافع وأقول إن ذلك الكلام غير معقول!

ليس من الضرورة أن تكون خطية الإدانة مكشوفة ومباشرة.

من السهل أن يقع الإنسان فيها بطريقة غير مكشوفة، وبطريقة غير مباشرة. بأن يشجع غيره على الخطأ، أو يفتح له باب الخطأ. ويقف هو من بعيد يتفرج ويسمع، بوجه كله (براءة)، محتجاً على ما يقال احتجاجاً يساعد على المزيد... إنه مجرد سأل سؤالاً...

وقد لا يكون السؤال عن شخص، وإنما عن موضوع.

والكلام يجر بعضه بعضاً إلى أن يصل إلى الشخص. وهناك موضوعات من المعروف جيداً من هم الأشخاص المرتبطون بها، والذين يحملون المسئولية.

من أجل هذا يقول الآباء القديسون:

« لا تقل كلاماً يسهل اللائمة ... »

فإن كنت أنت حقاً شخصاً بعيداً عن الإدانة. فحتى إن فتح غيرك الموضوع -وليس أنت- ووجدت أن مجرى الحديث سينتهي إلى مسك سيرة إنسان، حاول أن تغير مجراه إلى اتجاه آخر.

أنواع أخرى من الإدانة

قد تأتي الإدانة أحياناً عن طريق الإحراج وكشف الآخرين.

فربما لا تقول لإنسان إنه جاهل، ولكنك توجه إليه بضعة اسئلة منتقاه، تعرف مقدماً أنه لا يستطيع الإجابة عنها أو هي فوق مستواه. وبهذا تحرجه وتكشف جهله أمام الآخرين. ويكون قصدك هو هذا. وتكون قد وقعت في خطية الإدانة، دون أن تلفظ كلمة واحدة من كلمات الإدانة. ولكن الإدانة هي في نيتك وفي قصدك، وقد وصلت إليها بأسئلتك.

كذلك قد تسأله عن بعض خصوصيات تحرجه وتدينه!

مثل: أين كنت في اليوم الفلاني وفي اليوم الفلاني؟ ومن الذي قابلته؟ وماذا قلت له؟ وماذا أعطاك؟ وتبدو الأسئلة خالية من ألفاظ الإدانة. ولكن الإدانة كامنة في أجابتها، أو فيما تثيره هذه الأسئلة من شكوك في أذهان الحاضرين... إذ يقولون-ولو في ذهنهم- لابد أن في الأمر شيئاً محرجاً...

وقد تكون الإدانة في أسلوب الشكوى:

لأنه لا يوجد أحد يشكو إلا من أخطاء الغير إليه. فالشكوى تحمل أتهامه بهذا الخطأ. وكلما انتشرت هذه الشكوى أمام كثيرين، تزداد سمعة الرجل سوءاً، كإنسان يسيء إلى غيره أو يظلمه أو يهينه...

وقد تكون الإدانة عن طريق الملامح وليس اللسان.

مثال ذلك أن يسألك أحدهم عن شخص معين، فتلوي شفتيك في احتقار وازدراء، أو تلوح بيدك بطريقة يفهم منها هذا المعنى، أو تنظر نظرة خاصة ذات معنى، أو تومىء بايماءة لها نفس المعنى... كل ذلك دون أن تنطق بكلمة إدانة واحدة. ولكن الملامح والإشارات تعبر تماماً عما تقصده، دون أن تتكلم.

والإدانة قد تصل إلى درجة التحقير أو التعيير.

وهذا لون آخر من الإدانة، ارتبطت به خطايا أخرى، وأصبح له عمق خاص يجعله أخطر من غيره من جهة المشاعر...

إنه نوع يهين ويجرح، ولا يبالى بإنسانية من يدينه!

إن الذى يحتقر غيره و يزدريه لسقوطه، هذا خطيته أصعب ممن يغتاب أو ينم أو يدين.

اعلم أن الشخص الذى تحتقره وتزدريه، لسقوطه فى الخطية أو لضعفه، أنت من نفس طبيعته القابلة للسقوط، ويمكن أن تقع فيما وقع فيه...

أتستطيع أن تدين شخصاً، أغتصب اللصوص بيته وسرقوه؟! أم أنت تشفق عليه، تخاف لئلا يحدث لك مثل الذى حدث له؟ هكذا الخاطىء هو فى وضع شبيه بهذا.

قال القديس الأنبا إشعياء:

الذى يلوم أخاه... أو يحتقره... أو يشى به قدام آخرين... هو إنسان قد صار بعيداً عن الرحمة.



الفصل الثالث



إساءة إلى كثيرين

١ ـ اساءة إلى الله

٢ ـ اساءة إلى الذى يدين

٣ ـ خطية ضد المُساء إليه

٤ ـ الإساءة إلى السامعين

٥ ـ اساءة إلى آخرين لا تعرفهم

الإدانة خطية مركبة

١ ـ عدم المحبة

٢ ـ القسوة

٣ ـ الظلم

٤ ـ الكذب

٥ ـ عدم الاتضاع

٦ ـ اعثار الآخرين

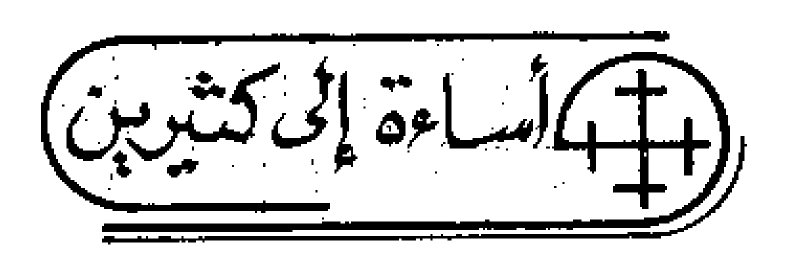
٧ ـ الإهانة والتحقير

٨ ـ عدم اللياقة

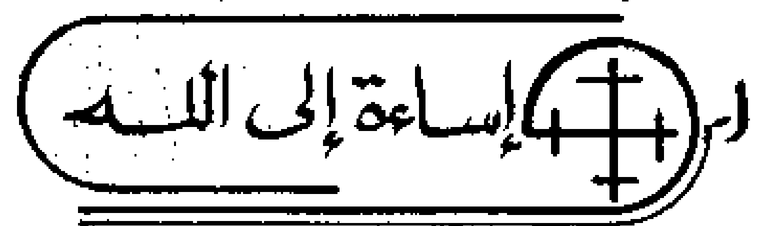
٩ ـ الحكم على النيات

١٠ ـ الرياء

كما تحدثنا عن الغضب (النرفزة)، وقلنا إنه خطية مركبة، كذلك نقول عن خطية إدانة الآخرين، إنها غالباً ما تكون مجموعة خطايا مجتمعة ومركبة معاً تحت هذا الإسم. ونبدأ فنقول إنها:



فهى تحمل إساءة إلى الله، وإلى الشخص الذى يدين غيره، وإلى المُساء إليه، وإلى السامع، وإلى كل من تصلهم هذه الإدانة ولو بطريقة غير مباشرة... فكيف؟



الإدانة هى عمل من أعمال الله، لأن الله هو الديان (مز ٥٠ : ٦)، وهو «ديان الأرض كلها» (تك ١٨ : ٢٥). وهو الوحيد الذى يستطيع أن يدين بعدل مطلق، لأنه فاحص القلوب والأفكار، ويعرف النيات والمقاصد، كما يعرف الخفيات والظاهرات، وعلى علم بكل الملابسات والظروف المحيطة. وهو يعرف كل هذا معرفة يقينية لاشك فيها.

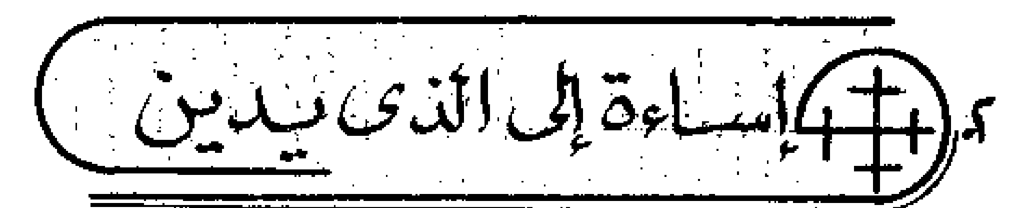
لذلك فالذى يدين غيره بغير حق، إنما يأخذ حق الله واختصاصاته، كما يمارس عملاً ليس فى حدود قدراته.

وهو بهذا يدين إنساناً قبل أن يدينه الله، وقبل أن يأتى يوم الدينونة الرهيب، فهو يحكم إذن قبل الوقت. كما أنه يدين عبداً لمولاه حق التصرف فيه. ومولاه هو الله.

يستثنى من هذا، الذين منحهم الله حق الإدانة، فقد قيل عن الحاكم مثلاً إنه «لا يحمل السيف عبثاً، إذ هو خادم الله منتقم من الذى يفعل الشر» (رو ١٣ :

٤). وكذلك من اقيموا من الله للرعاية مثل الوالدين والآباء الروحيين، وكل من هو فى مسئولية..

كذلك فإن الذى يقع فى خطية الإدانة، إنما يكسر وصية الله الذى قال «لا تدينوا لكى لا تدانوا» (متى ٧: ١). فهو إذن يخالف الله، و يكون بهذا قد أخطأ إليه، بالعصيان. و بالاضافة إلى هذا فإن خطية الإدانة:



٢. إساءة إلى الذى يدين

والذى يدين غيره، ترتفع عنه النعمة والمعونة، فيسقط.

وذلك لكى تنسحق نفسه فى هذا السقوط، فلا يعود و يدين غيره. ولكى يشعر أنه معرض أن يسقط فيما سقط فيه أخوه، لولا أن النعمة تسنده. فبقاؤه قائماً فى الوقت الذى سقط فيه غيره، ليس دليلاً على قوته الذاتية، إنما هو راجع إلى عمل النعمة. فلا يتكبر و يدين أخاه، لكيلا ترتفع عنه النعمة فيسقط.

فإنه بهذه الإدانة يوقع نفسه فى الحكم، إذ أن الرب قد قال «لا تدينوا لكى لا تدانوا. لأنه بالدينونة التى بها تدينون تدانون. وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم» (متى ٧: ١، ٢).

إذن فالذى يدين غيره، يعرض نفسه للدينونة.

و بنفس الكيل، ليس أقل. بل ورد فى الإنجيل لمعلمنا مرقس الرسول «يكال لكم و يزاد» (مر ٤: ٢٤). فالذى يقسو مثلاً فى إدانته لغيره، إنما يعرض نفسه لنفس القسوة وأزيد. وقد يتعرض لهذا الحكم هنا على الأرض كما هناك فى السماء. مثال ذلك العبد الذى عامل بالقسوة رفيقه المدين له، إذ قيل عنه فى الإنجيل «فدعاه حينئذ سيده وقال له: أيها العبد الشرير، كل ذلك الدين تركته لك لأنك طلبت منى. أفما كان ينبغى أنك أيضاً ترحم العبد رفيقك كما رحمتك أنا. وغضب سيده وسلمه للمعذبين» (متى ١٨: ٣٢-٣٤).

قال أخ لشيخ «لماذا يا أبى شيطان الزنى يحاربنى بقسوة حتى أننى أسقط». فأجابه الشيخ «ذلك لأنك تدين أخاك، فتفارقك النعمة، فتشعر بقسوة الحرب

وتسقط ». ولعل الإنسان لأول وهلة يعجب قائلاً « وما علاقة الإدانة بالزنى ؟» حقاً لا توجد علاقة مباشرة. ولكن هي هذه النتيجة: مفارقة النعمة لمن يدين غيره...

إذن لا تدن غيرك، ليس لمجرد الشفقة عليه، وإنما أيضاً إشفاقاً على نفسك.

إشفاقاً على نفسك من نتائج الإدانة بالنسبة إليك أنت. سواء تعرضك لتخلى النعمة هنا، أو تعرضك للدينونة هناك، أو مقاساتك من مرارة الخطية التى دنت أخاك عليها. كما حدث في قصة ذلك الشيخ الذى قسا فى حكمة على شاب سقط فى الخطية، فشككه حتى أخذ طريقه إلى العالم. وحينئذ سمح الله أن تقع نفس الحرب على هذا الشيخ ليقاسى فى شيخوخته ما لم يجربه فى شبابه.

كذلك الذى يدين غيره، قد يعامله الناس بالمثل.

كما قيل فى المثل «من غربل الناس نخلوه». فكثيراً ما يحدث للذى يعيب غيره، أن يُرد عليه بالمثل. وكما كشف ضعفات غيره، يكشف هذا الغير ضعفاته مدافعاً بأن الكل تحت الضعف: الذى يدين كالذى يدان منه.

إذن أنت إن دِنت غيرك، تتعرض لكشف ضعفاتك.

إما أن يكشفها من تسيء إليه، أو يكشفها أصدقاؤه واحباؤه وكل المدافعين عنه. أو تنكشف ضعفاتك بأى سبب، بسماح من الله، حتى لا تعود تجلس فى منصة القضاء تدين غيرك، كأنك بلا عيب. انظر ماذا قال الرب للذين دانوا المرأة الخاطئة المضبوطة فى ذات الفعل.. قال لهم.

« من كان منكم بلا خطية، فليرمها أولاً بحجر» (يو٨: ٧).

وورد فى معاملة الرب لأولئك القساة الديانين أنه «انحنى إلى أسفل، وكان يكتب على الأرض» وقيل فى التفسير إنه كان يكتب لكل واحد منهم خطيته، لذلك ورد بعدها «وأما هم فلما سمعوا، وكانت ضمائرهم تبكتهم، خرجوا واحداً فواحداً مبتدئين من الشيوخ إلى الآخرين» (يو٨: ٨، ٩). لذلك لما سمعوا عبارة «من كان منكم بلا خطية فليقذفها أولاً بحجر». وكأن الرب يقول لهم:

بدلاً من أن تنظروا إلى خطية المرأة ، انظروا إلى خطاياكم .

مع أن المرأة كانت خاطئة فعلاً ، وهم لم يظلموها ولم يدعوا عليها إدعاءات باطلة لأنها «أمسكت فى الخطية» أمسكت وهى تزنى فى ذات الفعل. ولكن السيد المسيح أراد لهؤلاء أن ينظروا إلى خطاياهم، وليس إلى خطية غيرهم.

الله هو وحده الديان، أيضاً لأنه هو وحده القدوس (رؤ١٥ : ٤).

أما باقى البشر، فينطبق عليهم المثل القائل «من كان بيته من زجاج ، فلا يقذف الناس بالحجارة» . ليتك تذكر نفسك بهذا المثل، حتى لا يتهشم بيتك...

ارحم إذن مادمت محتاجاً إلى الرحمة .

واستر على غيرك ، مادمت محتاجاً إلى الستر .

وبالكيل الذى تريد أن يكال به لك، يمكنك أن تكيل لغيرك. أتريد ستراً، إذن استر. أتريد أن خطاياك تظل مخفاة لا يعرف بها أحد، إذن اعمل المثل، واترك خطايا غيرك مستورة لا يعلم بها أحد...

٣- خطية ضد المُساء إليه

إنها إساءة لسمعته التى تلوكها الألسن وتصبح مضغة فى الأفواه. وهى حط لكرامته، بينما يقول الكتاب «مقدمين بعضكم بعضاً فى الكرامة» (رو١٢ : ١٠).

وفيها الحديث عن أخطائه دون إعطائه فرصة للدفاع عن نفسه.

أو لتوضيح موقفه، أو لشرح الأسباب التى دعته إلى التصرف هكذا... وربما يكون كل ما يقال عنه شائعات لا صحة لها...

وبفرض أنه أخطأ ، لماذ لا تستر عليه ؟

وقد قيل عن القديس مقاريوس الكبير أنه صار كملاك على الأرض ، لأنه كان يستر خطايا الآخرين ، ولا يدع أخطاءهم تنفضح أمام الناس. فإن كنت أنت لم

تستطع أن تستر على غيرك وتخفى فضائحه . فعلى الأقل لا تكن سبباً لنشرها بالأكثر فى محيط أوسع ، بالحديث عنها والحوار فيها ...

كذلك بنشرك لخطايا الغير ، إنما تعرقل طريق توبته ...

فالإنسان الذى لم ينفضح أمره ، يمكنه أن يتوب إذا أراد ، بعكس الذى تلاحقه سمعته وأخطاؤه حيثما تذهب... قد يجد صعوبة فى أن يغير مسلكه ! وفى أن يصير إنساناً جديداً .

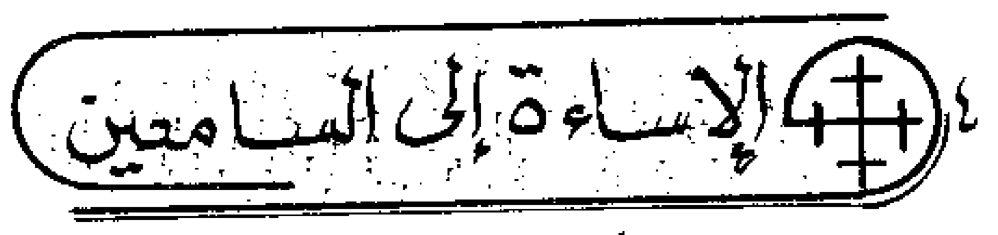
وربما الحديث عن خطايا غيره يفقده ثقة الناس فيه ...

وهكذا لا يستطيع أن يستعيد مكانته فى المجتمع ، ولا أن يكوّن علاقات طيبة مع الشرفاء والحريصين ، و يصبح التعامل معه موضع شكّ بسبب ما قيل عنه ...

وعلى رأى القديس يوحنا ذهبى الفم :

« إن كنت لا تستطيع أن تسد فم من يتكلم على أخيه بالسوء ، فعلى الأقل لا تتكلم أنت .

وأنت فى خطية الإدانة لا تسيء فقط إلى الله وإلى نفسك وإلى المُساء إليه ، وإنما أنت أيضاً تتسبب فى :



ما ذنب السامع إن كنت تسبب له عثرة ؟

وأنت تعرف ما قاله الرب عن صانعى العثرات : « و يل لمن تأتى بواسطته العثرات . خير له لو طوق عنقه بحجر رحى وطرح فى البحر، من أن يعثر أحد هؤلاء الصغار» (لو١٧ : ١ ، ٢) .

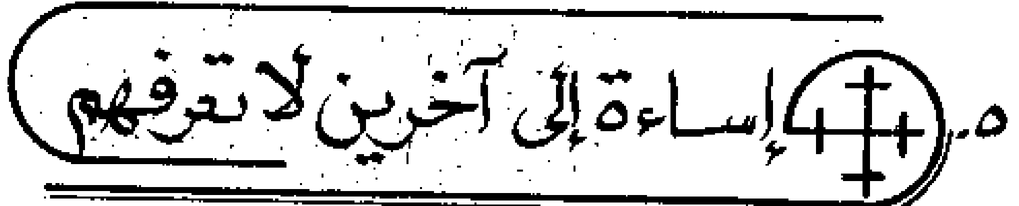
ماذنب السامع فى أن تفقده بساطته وتسبب له أفكاراً ؟!

وهكذا تغير صورة الآخرين فى ذهنه . وقد تثبت عنده هذه الفكرة التى غرستها فيه من جهة الغير، وقد تؤثر على علاقته به ومعاملته له ، دون أن يدرى ذاك سبباً

لكل هذا !! لماذا هذا الإتلاف ؟!

ولهذا قال الآباء : إن الذى يتكلم بالسوء على غيره ، يهلك أنفس سامعيه ، ونفسه أيضاً لا تفلت ...

وربما ـ دون أن تدرى ـ تحمل إدانتك لغيرك إساءة أخرى .



فكلام الإدانة الذى قلته ، ربما لا يصل إلى سامعيك فقط ، وإنما قد تتناقله الألسن فينتشر وسط كثيرين لا تعرفهم ، وهؤلاء أيضاً بالمثل : تسبب لهم عثرة ، وتفقدهم بساطتهم ، وتتغير علاقاتهم مع المُساء إليه ... وتتسع الدائرة ...

إن كلمة الإدانة التى تقولها ليست عاقراً ، فقد تلد بنين وبنات ، وقد ينتشر نسلها فى أماكن متعددة ، وقد يأتى بنسل آخر من استنتاجات وأقاويل وإضافات وفهم خاطىء .

وقد لا تلد كلاماً فقط ، وإنما أيضاً مشاعر وخلافات .

وأنت فى كل ذلك ، تحاول أن تحصر نطاق خطيتك فلا تستطيع ، وتحاول أن تحصى عدد الذين أعثرتهم فلا تقدر ... إنهم إسماء تعرفها ، واسماء لا تعرفها ...

وإدانتك لغيرك قد تلد عند البعض إدانة لك .

لماذا يتكلم عن غيره بهذا الأسلوب ؟ ولماذا يمسك سيرة غيره ؟ ولماذا ينتقد هذا الإنسان أو ذاك ؟ وما الدافع وراء كل هذا ؟ وهل كلامه حق أم مخترع ؟ وهل يتكلم عنا نحن أيضاً بنفس الأسلوب ؟ وهل يمكن أن نسلم من لسانه أم سوف يأتى دورنا ؟ وهكذا تتحول من مسىء إلى غيرك إلى مُساء إليه .

فالذين يسمعونك أو يصل إليهم كلامك : بعضهم سيصدّق ما يسمعه ، والبعض لا يصدق .

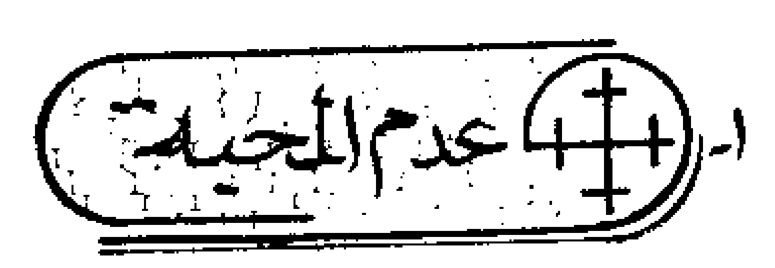
فالذين يصدقونك سوف تسوء سمعة ذلك الشخص فى نظرهم . والذين لا يصدقونك ستسوء فى نظرهم سمعتك أنت . وفى كلا الحالين خسارة لك ولهم ...

الإدانة خطية مركبة

ليست الإدانة فى جميع حالاتها حكماً بريئاً عادلاً ، من شخص له سلطان أن يدين... وإنما قد تكون خطية حينما تصبح مجرد مسك سيرة ، وإساءة إلى السمعة. وقد ترتبط بخطايا أخرى. وربما تكون لها خلفيات وأسباب.

وقد تكون أسباب الإدانة خطايا أبشع من الإدانة ذاتها.

فإدانة الآخرين لا تنشأ من فراغ ، ولابد من دوافع ، أو عوامل مساعدة ، علينا أن نعرفها ونتتبعها ونعالجها... باحثين عن الخطايا المرتبطة بالإدانة. وقد لا تكون كلها مرتبطة بكل خطية إدانة ، وإنما بعض منها مرتبط بمناسبة أو بشخص ، والبعض بمناسبة أخرى وبشخص آخر. فما هى هذه الخطايا ؟ إنها :



يقول الكتاب « المحبة تستر كثرة من الخطايا » (١بط ٤ : ٨).

ولعل القديس بطرس أقتبس هذه الآية من سفر الأمثال ، إذ ورد فيه « البغضة تهيج خصومات. والمحبة تستر كل الذنوب » (أم ١٠ : ١٢). وكما يقول المثل السائر « حبيبك يبلع لك الظلط ، وعدوك يتمنى لك الغلط ».

إن كنت تحب إنساناً ، فسوف لا تدينه ، بل ستدافع عنه.

وكما قيل فى المزمور عن الرجل البار إنه « لا يقبل عاراً على جيرانه » (مز١٥ : ٣). فكم بالأولى يصنع مع أحبائه واصدقائه وأقاربه...

الإنسان عادة يدين واحداً من أثنين :

فإما أنه يدين شخصاً لا يعرفه، أو شخصاً عادياً لا تربطه به محبة ولا كراهية، ولا تهمه سمعته فى شيء إن ساءت أو ارتفعت فى نظر الناس... وطبعاً هذا الإتجاه هو ضد مبدأ المحبة من نحو الكل. إذ ينبغى أن تكون سمعة الناس -أياً كانوا- عزيزة فى أعيننا، فهم بشر وأخوة، حتى إن كنا لا نعرفهم، ولا نقابلهم بلا مبالاة...

وإما أن تكون الإدانة مصحوبة بخطية حقد وكراهية نحو شخص يبغضه القلب، كما كان النوع السابق مصحوبة بخطية اللامبالاة...

والحقد أو الغيظ أو البغضة من الخطايا الصعبة التى ينبغى أن ينقى الإنسان قلبه منها. يقول القديس يوحنا الحبيب «كل من يبغض أخاه، فهو قاتل نفس» (١يو٣: ١٥). ويقول أيضاً «وأما من يبغض أخاه، فهو فى الظلمة، وفى الظلمة يسلك، ولا يعلم أين يمضى، لأن الظلمة أعمت عينيه» (١يو٢: ١١).

البغضة قد تكون أم الإدانة، وهى أكثر شراً من إبنتها.

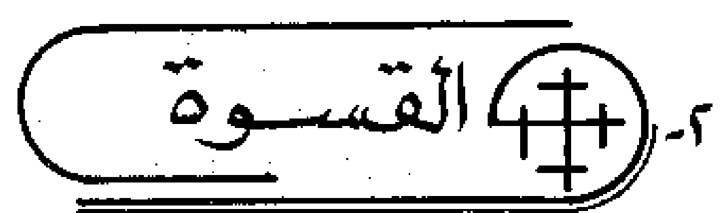
إنها تلد الإدانة، وتغذيها من شرها، وتصحبها طوال الطريق. وبها تصبح خطية الإدانة مركبة [بغضة+ إدانة]، أو لامبالاة بمشاعر الآخرين وسمعتهم تلد عنها خطية إدانة. أما المحبة فهى بعيدة عن كل هذا.

فكم بالأولى إذا وصلت البغضة إلى حد الغيظ والحقد ؟!

وهنا تكون التركيبة قد ازدادت تعقيداً. فالبغضة ولدت غيظاً وحقداً. وهذان انجبا الإدانة. وبقيت البغضة تغذى الثلاثة!

والإدانة التى سببها البغضة، إنما تخرج من قلب مسموم معكر. وحتى لهجة الصوت فيها، أو ألفاظ التعبير، تحمل فى طياتها ما فى القلب من حقد.

وهذا يذكرنا بخطية أخرى قد تصحب الإدانة وهى :



هناك إدانات لا تصحبها قسوة ، مثل الإدانة التى هى مجرد ثرثرة أحاديث حول مسلك سيرة الناس . وهذه قد تكون بأسلوب عادى ، وربما معه بعض التهكم والتفكه لتسلية الجلسة (!!) كما يظن هؤلاء ...

ولكن هناك إدانات معها قسوة فى الحكم أو فى الألفاظ .

مثل قسوة الكتبة والفريسيين الذى أتوا بالمرأة الخاطئة ، بعد فضحها أمام الناس . ولم يكتفوا بما سببوه لها من عار ، وإنما أرادوا أن ينفذوا فيها حكم الرجم حسب الشريعة (يو٨ : ٥) .

ومثالها قسوة الذين أدانوا السيد المسيح بحكم الموت .

واصروا على ذلك صائحين «أصلبه اصلبه» «دمه علينا وعلى أولادنا» (متى٢٧ : ٢٣ ، ٢٥) (مر١٥ : ١٣ ، ١٤) ، إلى جوار ما صحب هذه الإدانة من جلد ولطم وبصاق وأنواع استهزاء أخرى صادرة من قلوب قاسية .

وقد تكون القسوة فى استخدام ألفاظ جارحة .

أو وصف الشخص المدان بأوصاف رديئة جداً ، وتهم تمس شرفه أو شخصيته أو عقليته . ولعل من الإدانة الجارحة كلمة «يا أحمق» الذى قال الرب إن عقوبتها نار جهنم (متى٥ : ٢٢) . وما أكثر الكلمات والعبارات التى يستخدمها الناس بنفس معنى كلمة (أحمق) ...

وقد تكون القسوة فى أسلوب الشدة والعنف الذى يستخدمه أحدهم فى الإدانة :

حيث يدين غيره بغضب شديد وعصبية ظاهرة ، وربما فى ثورة وهو ساخط كل السخط على تصرفات هذا الأخ التى يصفها بأعنف الكلمات ، مما يدل على قسوة شديدة داخل القلب .

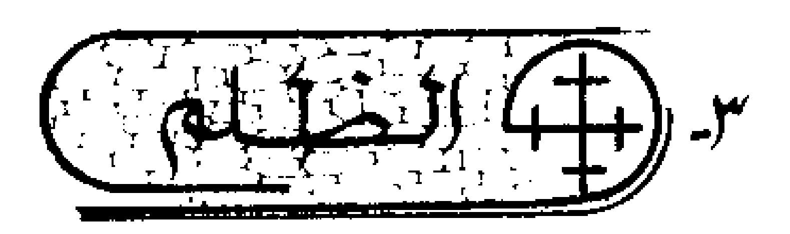
وقد تبدو القسوة فى عدم التماس أى عذر للذى يدينه .

وكذلك فى عدم تقدير ظروفه النفسية أو الصحية أو الاجتماعية ، وما أحاط بتصرفه من ملابسات وأسباب . بل يصدر الحكم فى اسلوب قاطع وهو يقول « مهما كانت الأسباب » ...

وقد تظهر القسوة فى عقوبة شديدة يصدرها على من يدينه

و ينفذها إن كان صاحب سلطان . أو يقترحها إن كان لا دخل له بالموضوع . و يقول فى عنف : هذا الشخص يستحق كذا وكذا من الاحكام... ولو كنت أنا المسئول لفعلت به كذا وكذا .. !

وغير البغضة والقسوة قد ترتبط الإدانة بخطية أخرى هى :



ليست كل إدانة عادلة . فهناك إدانات فيها ظلم :

كأن يدين الشخص غيره لمجرد السماع ، أو عن طريق الشائعات .

وقد يكون ما سمعه غير صحيح . وقد تكون الشائعات مغرضة ، أو خارجة من مصدر حاقد يريد التشهير. وربما يكون كل ما قيل عن هذا الإنسان مجرد اختراعات ، ولكنها انتشرت نتيجة تداول الكلام . وليس كل ما ينتشر يكون صحيحاً . ولا يصح الحكم على أساسه .

وربما يكون الظلم ناتجاً عن عدم التأكد وعدم التحقيق .

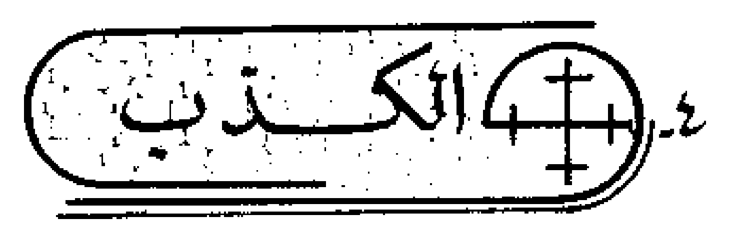
والمفروض أن المتهم برىء إلى أن تثبت الجريمة عليه . والمفروض فى كل ما نسمعه عن أحد ، أننا لا نصدقه بسرعة و بدون فحص ، و بدون اعطائه فرصة ليجيب عن نفسه .

وقد ادين يوسف الصديق عن جريمة هو برىء منها كل البراءة ، واتهمته زوجة سيده ظلماً ، ومع ذلك ألقى فى السجن وقد حمى عليه غضب سيده دون أن يتحقق

من صحة التهمة. وربما امتلأت المنطقة بكلام سوء عن يوسف نتيجة لما قالته الزوجة الشريرة. ولعله خلال السنوات التى قضاها فى السجن كانت تلاحقه الإدانة الظالمة والسمعة الرديئة.

وقد يكون الظلم عن جهل كما فعل فوطيفار بيوسف. وقد يكون بمعرفة وبنية سيئة كما فعلت زوجة فوطيفار بهذا البرىء.

وسواء كان الظلم عن جهل أو عن قصد سىء، فهو ظلم يلصق الإدانة بإنسان برىء. والظلم المقصود يقودنا إلى خطية أخرى قد ترتبط بخطية الإدانة وهى:



٤- الكـــذب

وهذا الكذب قد يكون كاملاً، أو عن طريق المبالغة.

والكذب الكامل هنا، يقصد به أن شخصاً يخترع كلاماً ضد آخر للإساءة إلى سمعته، وهو يعرف تماماً أن ما يقوله عنه هو محض افتراء. وطبعاً لا يفعل هذا إلا لو كان قد دفعه إلى الكذب شعور من الكراهية أو رغبة فى الإنتقام أو لون من الحسد. وهنا تكون خطية الإدانة مركبة من عديد من الخطايا.

وقد تصحب الإدانة بكذب جزئى هو نوع من تضخيم الواقع بأسلوب مسىء.

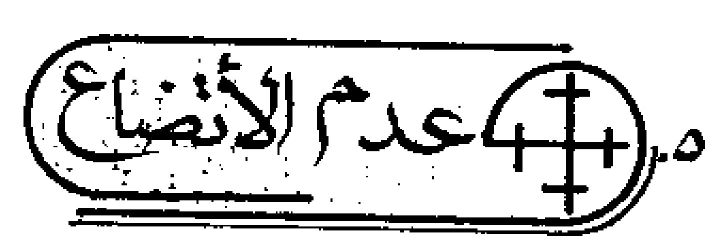
فقد يقع إنسان فى خطأ دينى عن عدم فهم، فيقدمه آخر للسامعين على اعتبار أنه هرطقة أو فضيحة أو عار، و يضخم من قيمة الخطأ كما لو كان كفراً... و يفعل ذلك إما بسبب الرغبة فى الإساءة، أو لأنه بطبيعته مبالغ فى كل ما يتكلم عنه من أمور...

وربما يكون الكذب من اختراع المتكلم الذى يدين، أو يكون نقلاً عن آخرين...

وفى الحالتين كلتيهما -اختراع الكذب أو نقله- يكون الشخص المُساء إليه واقعاً تحت ظلم وهو برىء. والمفروض فى ناقل الكذب أن يتحرى جيداً فى تقبل

الخبر، وفى توصيله لآخرين، وقد لا يكون من حقه هذا التوصيل...

ننتقل إلى خطية أخرى ترتبط بالإدانة وهى:



دائماً الذى يدين غيره، يكون ناسياً خطاياه الخاصة.

ولو افتكر خطاياه، ما كان يفكر فى خطايا أخيه، أو يتحدث عنها أو يعايره بها! ولذلك فإن الكتبة والفريسيين لما كانوا ناسين خطاياهم أثناء إدانتهم للمرأة المضبوطة فى ذات الفعل، ذكّرهم الرب بهذه الخطايا، فلما بكتتهم ضمائرهم عليها، تركوا إدانة الخاطئة وانصرفوا (يو٨: ٩- ١١).

فى عدم الاتضاع، يظن الإنسان نفسه أفضل من غيره، فيدين هذا الغير.

ولذلك فإن الفريسى المتكبر أدان العشار فى الهيكل، لما رأى فى نفسه أنه ليس من الناس الظالمين الخاطفين الزناة، ولا مثل هذا العشار، ولما تذكر بره وصومه وعشوره (لو١٨: ١١، ١٢). أما العشار فكان منشغلاً بإدانة نفسه أمام الله، فلم يدن غيره.

تزيد الإدانة بواسطة الكبرياء، إذا ما قارن الإنسان نفسه بمن هو أقل منه.

لذلك فإنه يدين هذا الذى هو أقل، كما أدان الفريسى العشار. أما المتواضع الذى يرى أنه أقل من الكل، فلا يدين غيره. كذلك بالكبرياء يظن أنه لا يمكن أن يسقط فيما سقط فيه هذا المدان. أما المتواضع فلا يعتبر أنه أقوى من أية خطية، بل يتذكر أن الخطية «طرحت كثيرين جرحى، وكل قتلاها أقوياء» (أم٧: ٢٦) لذل فهو لا يدين غيره.

بل بالكبرياء يمكن أن الإنسان يدين من هو أكبر منه:

كما حدث أن مريم وهارون وقعا فى إدانة أخيهما موسى النبى العظيم حينما تزوج إمرأة كوشية. فكانت النتيجة ولذلك وبخهما الله، وشرح لهما كيف أنهما أقل من موسى بكثير، حتى يعودا إلى اتضاعهما، ويعرفا قدر هذا العظيم الذى يدينانه. وضرب الله مريم بالبرص، فأخرجوها خارج المحلة سبعة أيام كنجسة، حتى تتعلم الاتضاع فلا تدين من هو أكبر منها (عد ١٢: ١٥).

وكان سبب وقوع مريم وهرون فى الإدانة هو عدم الاتضاع، إذ قالا «هل كلّم الرب موسى وحده؟ ألم يكلمنا نحن أيضاً» (عد ١٢: ٢). فكلمهما الرب بتوبيخ ليعرفا قدرهما تماماً...

فى إدانة الآخرين خطية أخرى وهى:



ونقصد هنا طبعاً الإدانة باللسان، لأن الإدانة بالفكر أو القلب لا تعثر أحداً.

أما الإدانة باللسان، فتعثر السامع، وتوقعه مع المتكلم فى نفس الخطية.

ويكون المتكلم الذى أدان غيره قد تسبب فى سقطة أخيه، ويحاسبه الله على هذه العثرة. وبقدر ما يزداد عدد الذين تعرضوا للعثرة، تكبر خطية الإدانة جداً...

خطية أخرى ترتبط بخطية الإدانة وهى:



الإدانة هى بلا شك إقلال من شأن الشخص المدان.

لأنها تحكى عيوبه أو نقائصه، خطاياه أو أخطاءه. وهى على درجات فى شدتها. وقد تصل أحياناً إلى الإهانة والشتيمة، أو إلى التعيير والتحقير. وقد ينظر فيها الذين يدين نظرة استصغار أو احتقار إلى من يدينه، مشعراً إياه بضآله قدره، أو مبكتاً إياه بازدراء، أو جاعلاً الآخرين يستصغرونه أو يفقدون احترامهم له.

وقد يجرحه بكشف أسراره وخصوصياته أمام الناس.

ويحكي ما يعرفه عنه من أمور مشينة. وقد يزداد الأمر خطورة بأن يشعر السامعين أن هذا الشخص لا فائدة فيه، ولا اصلاح له، كأن قد حكم عليه بالضياع!

وهذه النقطة ترتبط بها نقطة أخرى وهي:

٨. 

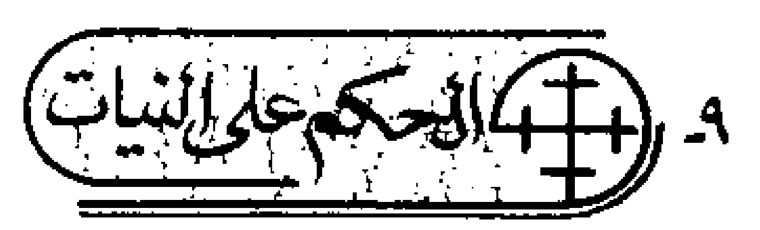
إذا قد يتحدث بعيوب الشخص أمام أعدائه فيشمتون به.

أو يزداد هجومهم عليه، إذ قد قدمت لهم مادة جديدة يحاربونه بها، وما أكثر ما يسبب له هذا الأمر متاعب واشكالات.

أو قد يذينه أمام مرءوسيه، أو ابنائه، أو أمام من هم أصغر منه، فتضيع هيبته أمامهم، و يفقد مركزه.

وكل هذه وأمثالها أمور غير لائقة، تضاف إلى خطية الإدانة، فتجعل حجمها أكبر ومسئوليتها أزيد.

وقد تختلط في كل ذلك بعدم الحكمة، أو عدم التقدير، أو عدم مراعاة شعور الآخرين. نقطة أخرى تحدث أحياناً وهي:

٩. 

قد يصل الأمر بإنسان إلى أنه يدين نيات غيره ومقاصده، فيقول: هذا الإنسان نيته سيئة، وهو يقصد كذا وكذا من الشرور..!

بينما معرفة النيات والمقاصد هي من شأن الله وحده.

ولكن الامتداد في الإدانة جعله يدين النيات. وربما يقول إنه يفعل ذلك عن طريق الخبرة، أو عن طريق الاستنتاج. ولكن لاشك أنه لا شيء من كل هذا

مؤكد وما أسهل أن تكون كل استنتاجاته خاطئة، وفيها ظلم، وادعاء بمعرفة هو فيها «يرتئى فوق ما ينبغى» (رو١٢ : ٣).

الحكم على النيات، حتى لو صحّ، هو خطأ روحى.

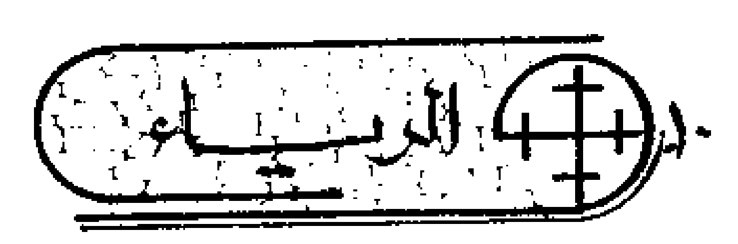
فكم يكون إذن من يدين مشاعر القلب، ومن يدين أفكار الناس، وهو لا يمكن أن يعرف المشاعر والأفكار، إلا عن طريق الظنون: وليست الظنون صادقة باستمرار...

بل يوجد من يدين حياة إنسان بالجملة، وطبيعته وخلقه... وربما يدين مصيره أيضاً ...

قال أحد الشيوخ (فى بستان الرهبان) :

إن كان لا يعرف ما فى الإنسان إلا روح الإنسان الذى فيه (١كو٢ : ١١)، وإذا كنا نعرف أن كثيرين قد تابوا، دون أن نعلم نحن بتوبتهم، وإذ قد يتفق أن يتوب إنسان فى آخر حياته، ويقبل الله كاللص، فسبيلنا إذن أن لا ندين أحداً... فالديان هو الله وحده، فكيف يجرؤ أحد أن يتدخل فيما هو خاص بالله؟!

آخر خطية اتحدث عنها كخطية مرتبطة بالإدانة هى :

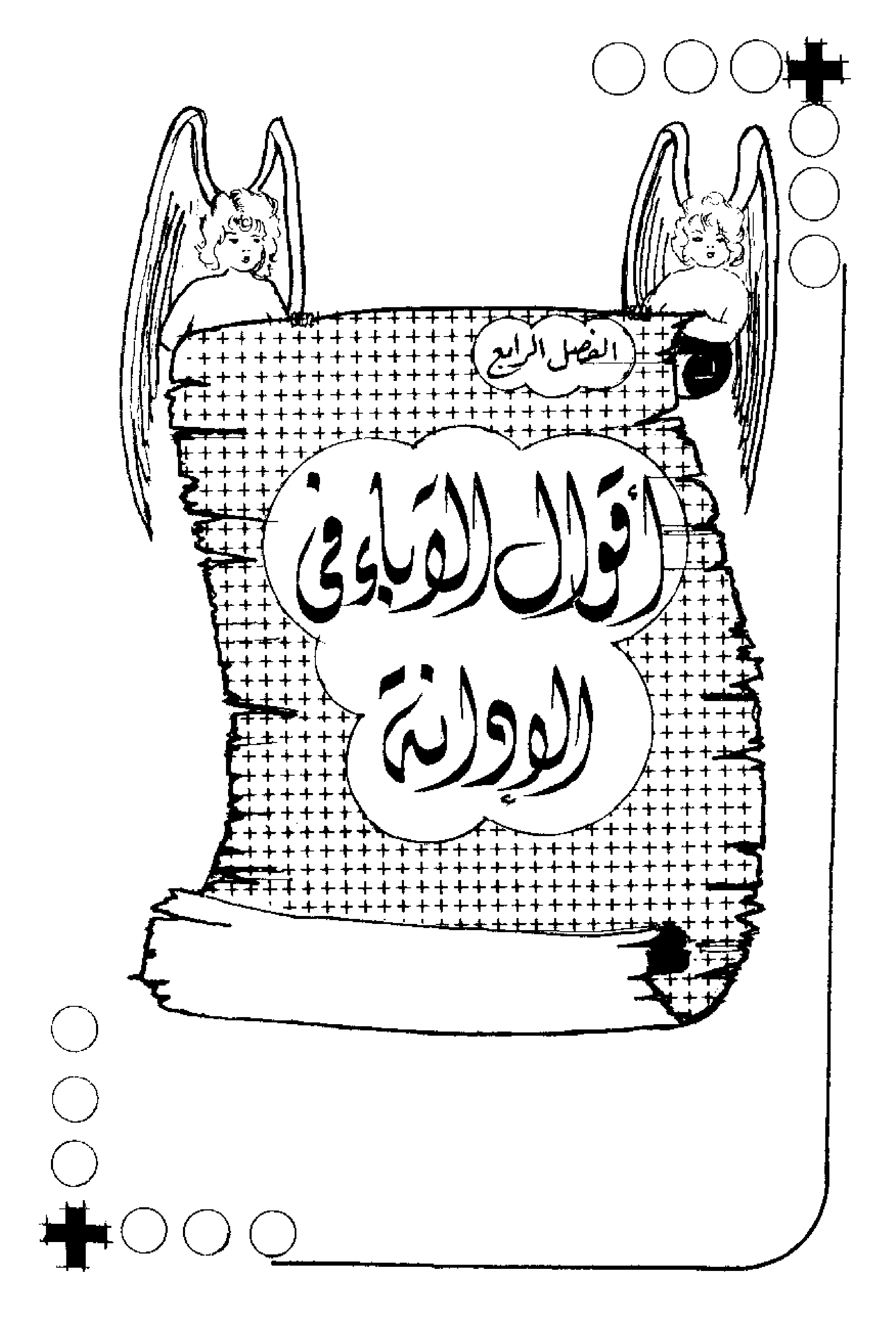


الشخص الذى يدين غيره على خطأ، وهو يرتكب نفس الخطأ أو ما هو أسوأ، يصفه السيد المسيح بالرياء.

فيقول له «لماذا تنظر القذى الذى فى عين أخيك، وأما الخشبة التى فى عينك فلا تفطن لها؟!... يا مرائى، اخرج أولاً الخشبة من عينك، وحينئذ تبصر جيداً أن تخرج القذى الذى فى عين أخيك (متى٧ : ٣- ٥).

إذن من الرياء أن ندين الناس على أشياء نحن نقع فيها خفية.

أو نحن نقع فى أمور أخرى، ربما تكون أكثر خطأ منها.


الفصل الرابع
أقوال الآباء في
الإدانة

قال القديس دوروثيئوس :

« الحكم على خليقة الله ، يليق بالله ذاته لا بنا »

« لأنه هو وحده العارف بسّر كل إنسان وعلانيته . وله وحده إصدار الحكم فى كل أمر، وعلى كل شخص » .

« الله وحده له الحق فى أن يبرر أو يدين، لأنه يعرف طبع كل إنسان وقوته » .

وهو أيضاً يعرف ميوله ومواهبه وتركيبه البدني ومقدراته .

لذلك فإن الله عندما يدين ، يدين بالعدل .

ولهذا قال الرسول لمن يتطاول على عمل الله هذا : «من أنت أيها الإنسان، يا من تدين عبد غيرك؟ عبد هو لسيده، يثبت أو يسقط . ولكنه سيثبت لأن الله قادر أن يقيمه» (رو١٤ : ٤) .

* * *

وقال القديس دوروثيئوس أيضاً :

« إن سم الإدانة أحياناً يخرج من إنسان ، لكى يصب فى آخرين » .

نلاحظ أنه وصف الإدانة بسمّ، أى إنها تميت من تصل إليه . وكأنه بهذا يشبه الذى يدين غيره بحية تنفث سمها...

* * *

قال القديس مارأوغريس :

« لا تميز الذين سقطوا (من الذين لم يسقطوا) . ولا تترك فكر الكبرياء يقنعك بأن تكون دياناً» . وهنا القديس يربط بين الإدانة والكبرياء .

قال القديس الأنبا إشعياء :

« إذا أبصرت إنساناً قد أخطأ ، فلا تحتقره ، ولا تزدرِ به ، لئلا تقع فى أيدى أعدائك » .

حقاً ، ماذا تريد أنت من وراء هذه الإدانة ؟ هل تريد أن هذا الشخص يكرهه الناس ؟ أم تريد أن الله يهلكه ، ويجازيه بحسب أعماله الردية ؟ أمامنا قصة من البستان تلقى ضوءاً على هذا الأمر...

* * *

قصة من البستان :

قيل إن راهباً كان مقصراً فى عبادته ومتهاوناً ... فلما جاءته ساعة الوفاة ، اجتمع الرهبان حوله ، لكى يروا كيف سيقابل الموت ... فوجدوه فرحاً !!

فقال له أحد الشيوخ «تشدد أيها الأخ باسم المسيح وقل لنا ما الذى يفرحك ؟ »

فأجابه ذلك الأخ: إننى رأيت أناساً مقبلين لأخذ نفسى ، ورأيت صك خطاياى . وقالوا لى « هذه خطاياك » . فقلت « خطاياى أنا أعرفها ولا انكرها . ولكننى منذ ترهبت ، وأنا لم أدن إنساناً . وأريد أن تنفذ فىّ الآية التى تقول « لا تدينوا لكى لا تدانوا » . **فكيف أدان ، وأنا لم أدن أحداً ؟!** » . **ولما قلت هذا تمزق صك خطاياى .**

هذا الراهب لم يكن يعيش فى الخطية ، إنما كان مهملاً فى عبادته . ولكنه كان طيب القلب ، لا يغضب على أحد ، ولا يدين أحداً ، ولا يتكلم بالشر على إنسان . كان متضع القلب .

واستطاع باتضاعه وعدم إدانته لغيره ، أن يخلص ...

بالدقة فى تنفيذ هذه الوصية ، أمكن أن ينجو من الدينونة التى كان يمكن أن تحل به بسبب تهاونه .

وقال القديس ايرايس :

إنه جيد أن يأكل الإنسان لحماً، ويشرب خمراً»

« ولا يأكل لحوم الأخوة ويشرب دماءهم بالوقيعة »

لقد شبه الإدانة بعملية افتراس للآخرين، افتراس لسمعتهم وكرامتهم. وقال إنه خير للإنسان أن يكون مفطراً ولا يدين غيره، من أن يصوم ويأكل لحوم الناس بإدانتهم. وأكل لحوم الناس ابشع من أكل اللحم العادى...

★ ★ ★

وقال القديس الأنبا مسرا :

« إن التعقل (التعفف) الذى هو أفضل من إمساك البطن... والذى يجب أن تجذب إليه نفسك، ألا تأكل لحم إنسان ولا تشرب دمه بالوقيعة »

إنه نفس تعبير القديس إيرايس ...

ونفس التعبير يردده أيضاً ماراسحق اسقف نينوى

★ ★ ★

قال ماراسحق :

«إن الذى يصوّم نفسه عن الأكل والشرب، بينما يأكل لحوم الناس بالوقيعة، فصومه باطل».

★ ★ ★

وقال القديس ايرايس أيضاً :

« كما أن الحية لما كلمت حواء، أخرجتها من الجنة... كذلك يشبهها ذلك الذى يقع بقريبه »

« ذلك لأنه يهلك أنفس سامعيه، ونفسه كذلك لن تفلت... كما تفلت الحية نفسها من اللعنة».

أى أنه يضيّع نفسه، ويضيّع غيره معه.

أما ماراسحق أسقف نينوى :

فيرى أن الذى يدين غيره، هو شخص فى المستوى النفسانى، وليس فى المستوى الروحانى، لذلك يدين الكل، لأن فى قلبه شجرة معرفة الخير والشر، يفحص بها أعمال الناس هل هى خير من شر. وهكذا يقول ماراسحق :

« النفسانى هو قاض للأبرار والخطاه، وديّان للأحياء والأموات. ومنصوبة فى قلبه شجرة معرفة الخير والشر، التى مُنع رأس جنسنا آدم من أن يدنو منها أو يذوقها لئلا يموت ». هذا تغتذى معرفته منها فى كل وقت ».

إنه إنسان شغوف بحبة القضاه. وكل الذين يقابلهم يضعهم فى ميزان معرفة الخير والشر، ليس الأحياء فقط بل الأموات أيضاً...

* وبنفس الوضع يتكلم **ماراوغريس**، فيقول :

« لا تتكلم بالشر على الذى مات، لئلا تكون دياناً للأموات أيضاً »...

لأن الذى يفعل هذا يأخذ مكانة السيد المسيح الذى قال عنه إنه يأتى « ليدين الأحياء والأموات ».

حقاً، كم يحدث أن إداناتنا لا تقتصر على الأحياء فقط، بل كثيراً ما ندين الأموات أيضاً، الذين ربما يكونون قد تابوا قبل موتهم ومحا الله خطاياهم، ولم يعد يذكرها حسب وعده القائل «لأنى اصفح عن إثمهم، ولا أذكر خطيتهم بعد» (أر ٣١ : ٣٤).

الله لا يذكر تلك الخطايا، ونحن نذكرها !!

حقاً إن فى ذلك لعجباً... ذاكرة الإنسان أحياناً تتعبه وتتعب غيره. وكذلك لسانة، يتعبه و يتعب غيره...

يضع الإنسان نفسه رقيباً على أعمال الكل ! بعين نقادة، وفكر لا يهدأ، ولسان يستطيع أن يجرح.

بينما القديسون منعوا الإدانة، مهما كانت الأسباب.

قال القديس الأنبا أنطونيوس :

لا تعيّر أحداً مهما كانت الأسباب . ولا تفترِ على أخيك ، ولو رأيته عاجزاً عن إتمام جميع الفرائض .

* * *

وقال القديس الأنبا باخوميوس :

« لا تحتقر أحداً من الناس ، ولا تدنه ، ولو رأيته ساقطاً فى الخطية » .

* * *

ولعل تعليم الإنجيل يؤكد لنا هذه القاعدة ، وذلك فى :

قصة المرأة المضبوطة فى الفعل :

إن الذين ضبطوها وأتوا بها إلى الرب للحكم عليها بالرجم ، لم يدّعوا عليها ظلماً ، ولم ينسبوا إليها ما لم تفعله ، فقد كانت فعلاً ساقطة فى الخطية . ومع ذلك منعهم السيد من إدانتها ، وحول تفكيرهم إلى خطاياهم هم ، قائلاً « من كان منكم بلا خطية ، فليرمها أولاً بحجر » (يو٨: ٧) .

وأعطانا درساً أن لا ندين أحداً ، حتى لو رأيناه ساقطاً فى الخطية .

نحن أيضاً ساقطون فى خطايا كثيرة ... ولا يجوز لمريض أن يعيّر مريضاً آخر بمرضه ، وكلاهما تحت الألم . إنما الأفضل ستر الناس وليس كشف عيوبهم ، فنحن أيضاً لنا عيوب ...

* * *

قال القديس يوحنا ذهبى الفم :

« إن كنت لا تستطيع أن تستر أخاك ... وأن تأخذ خطيته وتنسبها إلى نفسك ، وأن تموت عنه ، فعلى الأقل ... لا تدنه » ... وقال ذهبى الفم أيضاً :

« إن كنت لا تستطيع أن تسكت فم الذى يتكلم بالشر على أخيك ، فعلى الأقل لا تفتح فمك أنت بالشر عليه » .

أى أن الوضع الأمثل هو أن تمنع السمعة الرديئة من أن تصل من الآخرين إلى أخيك. فإن لم تستطع، فعلى الأقل لا تشاركهم فى إدانته. وبالأحرى لا تبدأ أنت حديث الإدانة...

* * *

قال القديس بولس السينائى:

« تنهد على قريبك إذا أخطأ، كما تتنهد على نفسك، لأننا كلنا تحت الزلل ».

ذلك لأنك بهذا تعامله بترفق المحبة، وليس بقسوة الحكم. إنه أخوك وقريبك مهما سقط. إن الآب السماوى قال فى رجوع إبنه الضال «إبنى هذا كان ميتاً فعاش، وكان ضالاً فوُجد» (لو١٥ : ٢٤). وهكذا دعاه إبنه على الرغم من الموت ومن الضلال فكم بالأكثر تعامل أخاك... على أننا نلاحظ ملاحظة هامة فى هذه القصة وهى:

الآب السماوى غفر لهذا الإبن، وأخوه لم يغفر !!

بل رفض أن يدخل، ورفض أن يشترك فى الفرحة بعودته، وأدانه مع الآب قائلاً «إبنك هذا الذى أكل معيشتك مع الزوانى» (لو١٥ : ٣٠).

عجيب هو الرب فى محبته وعطفه... هو الذى يغفر، مع أن له كل الحق. ونحن الذين ندين، ولا حق لنا!

* * *

قال القديس انسطاسيوس:

« لا تكن دياناً لأخيك، لتؤهل أنت للغفران. لأن الرب يقول: لا تدينوا لكى لا تدانوا ».

نعم بكيل المغفرة والرحمة الذى نكيل به للآخرين، يكال لنا فى يوم الدينونة

إن عدم الإدانة عامل مساعد على نوال المغفرة. لكن يشترط طبعاً الإيمان والتوبة...

قال ماراسحق :

« احذر من أن تكون جالساً وتفكر فى أخيك بالشر، فإن هذا يقلع جميع بنيان برج الفضيلة من قلبك... حتى إن كنت قد وصلت إلى حد الكمال » ...

ويعلل ماراسحق هذا بقوله « ذلك لأن الهذيذ فى الأفكار الردية يقسى القلب » ...

ويقول أيضاً: غطّ على أخيك الخاطىء، وقوّه من غير أن تشمئز منه، لكيما تحملك رحمة سيد الكل ».

أى أن الرحمة التى نقابل بها الخطاه، تؤهلنا لأن ننال رحمة من الله، عملاً بقول الرب : « بالكيل الذى به تكيلون، يكال لكم ويزاد » (مر ٤ : ٢٤) .

وقال ماراسحق أيضاً:

اسند الضعفاء وصغيرى القلوب والنفوس بكلمة... فتسندك اليمين التى تحمل الكل... كن شريكاً للموجوعين بقلوبهم، بصلاتك الحزينة وبتنهد قلبك... لكيما ينفتح لسؤالك ينبوع الرحمة » .

وقال أيضاً : « لا تمقت الخاطىء، لأننا كلنا خطاه آثمون. وإن تحركت عليه من أجل الله، فابكِ عليه، وصلِّ من أجل نفسه » .

وهكذا يضع الآباء الرحمة فى موضع الإدانة .

ويأمرون بالصلاة من أجل الخاطىء بدلاً من اساءة سمعته .

وليس هذا من أجله فقط، بل أيضاً من أجل أنفسنا .

حتى لا ندان بسبب إدانتنا، بل على العكس يعاملنا الله بالرحمة بسبب رحمتنا وفى هذه النقطة اتفقت أقوال القديسين :

* * *

قال القديس الأنبا أنطونيوس :

« لا تدن غيرك لئلا تقع فى أيدى اعدائك » .

« وتفعل الخطايا القديمة التى تركتها » .

أن أن الله إذا رآك قاسى القلب فى أحكامك على الناس ، يسمح أحياناً أن تجرب بقسوة الحروب التى يعانونها من أعدائهم الشياطين . حتى إذا ما سقطت ، تعود وتشفق على غيرك ، ولا تدين ...

وقال أيضاً : إياك أن تعيب أحداً من الناس ، لئلا يبغض الله صلاتك » .

حقاً ، ما أصعب هاتين النتيجتين اللتين تنتجان عن إدانة الآخرين حسب تعليم أبينا القديس الأنبا أنطونيوس :

أ ـ أن تسلم لأيدى أعدائك ، وتفعل الخطايا القديمة .

ب ـ أن يبغض الله صلاتك .

ولماذا يبغضها ؟ لأنها ليست صادرة من قلب محب .

ونفس هذا التعليم نسمعه من القديس الأنبا إشعياء المتوحد :

* * *

وقال القديس دوروثيئوس :

من دان فى قلبه ، وتحدث بسيرته على لسانه ، تتخلى عنه المعونة الإلهية ، فيسقط فيما دان أخاه عليه » .

* * *

وقال القديس مقاريوس الكبير:

« احفظوا ألسنتكم ، وذلك بأن لا تقولوا على أخوتكم شراً ... لأن الذى يقول على أخيه شراً ، يغضب الله الساكن فيه » .

« وما يفعله كل واحد برفيقه ، فبالله يفعله » .

قصة من البستان :

فى إحدى المرات أتى الأب اسحق القس التبايسى إلى مجمع الشركة، وأدان أحد الأخوة على فعل أتاه. فلما عاد إلى قلايته فى البرية، أتاه ملاك الرب ووقف أمام باب القلاية، وقال له : إن الله ارسلنى إليك لكى أسألك :

« أين تريد أن نلقى بنفس هذا الأخ ؟ »

وحينئذ أحس الأب اسحق بالخطأ الذى ارتكبه... أنه لا يريد طبعاً أن تلقى نفس ذلك الأخ إلى الهلاك! فتاب لوقته وقال للملاك «أخطأت، فليغفر لى الرب بصلاتك». فقال له الملاك «قد غفر الله لك ولكن عليك أن تحفظ نفسك، ولا تدن إنساناً قبل أن يدينه الله».

* * *

قال القديس الأنبا بيمن :

« قد تجد إنساناً يُظن به أنه صامت. لكن فكره يدين آخرين. فمن كانت هذه صفته، فهو أبداً يتكلم ».

ويقصد القديس أن الإدانة ليست باللسان فقط، إنما بالفكر أيضاً. وصمت اللسان وامتناعه عن كلام الإدانة، لا يمنع أنه واقع فيها بالفكر.

ومع ذلك فالإدانة بالفكر أقل دينونة من الإدانة باللسان.

وذلك لأمرين : أولهما أنك بسقطة الفكر لا تعثر سامعين.

وثانيهما أنك لا تسىء إلى سمعه غيرك. فسقطة فكرك قاصرة عليك وحدك، وليس لها نتائج خارجك، إلا إذا تطورت ووصلت إلى اللسان.

* * *

وقال أحد الآباء :

إن رأيت شخصاً يخطىء اليوم، فلا تتكلم باكر فى إدانته، لأنك لا تعرف، ربما رجع فى هذه الليلة، وبكى على خطيته وتاب، ومحاها له الله...

وقال القديس مقاريوس الكبير:

لا تضعوا فى ذهنكم، ولا تقبلوا فى فكركم أن إنساناً ما شرير. لأن بطرس الرسول يقول «قد أرانى الله أن لا أقول عن إنسان ما أنه دنس أو نجس» (أع ١٠: ٢٨).

* * *

قال القديس مارافرام:

إن التلذذ بعيوب الآخرين، يدل على أننا ممتلئون بغضه.

وقال كذلك «من يشمت بسقطة أخيه، يسقط هو أيضاً سقطة مثلها». وقال «لا تترفع على أخيك فى ذهنك، لأنك لا تعلم ماذا سيحدث فى اليوم المقبل. فمن الجائز أنه يتوب وتسقط أنت».

وقال مارافرام أيضاً: إن الذى يسب رفيقه له صفتان: الوقيعة والبغضة» «ومثل هذا يعتبر فاقداً للتحنن وعادماً الرحمة».

وقال: لا تكن دياناً لغيرك، لأن كل واحد منا سيعطى اجابة عن أعماله. وأنت سوف لا تعطى أجابة عن أعمال غيرك».

* * *

وقال القديس سمعان العمودى:

إن وجدت واحداً من أخوتك قد مال قليلاً، فلا تقطع رجاءه. لأن الكتاب يقول «عزوا بعضكم بعضاً» (١تس ٤: ١٨). «المنتظر منك أن تقيم الإنسان الساقط، لا أن تقضى عليه».

وقال القديس سمعان العمودى أيضاً « إن كنت تدين أخاك، فماذا تقول لك عن نفسك.

* * *

قال القديس الأنبا بيمن:

إذا دنا أنفسنا، لا يبقى لنا وقت ندين فيه آخرين.

قال ماراسحق :

« لا تدن غيرك ، لئلا تُمتحن بما أُمتحنوا به »

أى لكى لا تقع فى نفس الحرب الروحية الصعبة التى تعرضوا لها . وهكذا توقع نفسك فى التجارب .

وقال أيضاً « اذكر أنك من الطبيعة الأرض ، مشترك معهم فى جسد آدم ، وفى نير هذه الطبيعة » .

وقال ماراسحق أيضاً :

« الإنسان البعيد عن ذكر الله ، هو المهتم بقول السوء على أخيه » .

أى أن الإنسان إذا كان منشغلاً بالصلاة والتأمل ، وقراءة الكتاب ، والمداومة على ذكر الله فى قلبه ، لا يبقى لديه وقت يتفرغ فيه لذكر أخطاء الناس . أما الإنسان المقصر فى عبادته ، فإن الفراغ يساعده على كلام الإدانة .

* * *

قال القديس يوحنا القصير:

كن حزيناً على الذين هلكوا . وكن رحيماً على الذين سقطوا .

لعله يشبه هذا بما قاله القديس بولس الرسول فى رسالته إلى العبرانيين « اذكروا المقيدين ، كأنكم مقيدون معهم . واذكروا المذلين ، كأنكم أنتم أيضاً فى الجسد » (عب ١٣ : ٣) .

نعم ، ليس المفروض أن ندين الساقطين ، بل أن نقيمهم .

وفى ذلك يقول الكتاب « شددوا الأيادى المسترخية ، والركب المرتعشة ثبتوها » (أش ٣٥ : ٣) . وأيضاً يقول الرسول « شجعوا صغار النفوس . اسندوا الضعفاء . تأنوا على الجميع » (١تس ٥ : ١٤) .

قال « اسندوا الضعفاء » ولم يقل أن تدينوهم أو تحتقروهم أو تشهروا بهم أمام الآخرين .

وقال ماراسحق :

« الذى ينظر الخشبة التى فى عينه ، لا يتفرغ لأن ينظر القذى الذى فى عين أخيه » . وقال أيضاً :

« الذى يعتنى بأن يقوم فى ذاته المناقص التى تظهر له فى الآخرين الذين هو سالك بينهم ، هذا قد وجد مرآة روحية داخل نفسه » .

أى أننا عندما نرى خطأ ما يرتكبه البعض ، نفحص أنفسنا جيداً ، ربما نرى هذا الخطأ فينا ، فنعالج فى أنفسنا ما نرى غيرنا يدانون عليه .

وهذا المعنى نفسه ردده القديس مارأوغريس .

* * *

قال القديس مارأوغريس :

« الذى يفحص نقائص الآخرين ، هو لم يفحص بعد أعماله الخاصة بحرص . لأنه لو فحص نفسه جيداً ، لوجد أن العيب الموجود عند الناس ، هو موجود عنده أيضاً » .

وهذا المعنى ليس فقط لماراسحق ومارأوغريس ، وإنما :

* * *

قال الأنبا ميلوس :

« إذا نظرنا فى أمور أنفسنا ، ندين آخرين . لأن أموراً كثيرة هى فينا ، ونحن نلوم بها غيرنا » .

* * *

وقال أحد الآباء :

إن الله هو الديان . وقد أعطى الدينونة كلها للإبن (يو٥ : ٢٢) . ومع ذلك قد أجّل تلك الدينونة إلى اليوم الأخير الذى يأتى فيه فى مجده ليدين الأحياء والأموات . فلماذا تتعجل الأمر ، وتبدأ أنت فى الدينونة من الآن .

وقال القديس مقاريوس الكبير:

« احفظوا ذواتكم من كلام النميمة والوقيعة، لكى تكون قلوبكم طاهرة. لأن الأذن التى تسمع النميمة، لا تستطيع أن تحفظ طهارة القلب بدون دنس».

أى اجعل أذنك نظيفة، لكى يصير قلبك نظيفاً، لأن الأذن توصل إلى القلب.

فإن كان الذى يسمع فى خطر، فكم بالأكثر الذى يتكلم؟ وكم بالأكثر الذى ينقل الكلام الردىء.

وماذا عن الذى يسىء العلاقات بين الناس بما ينقله من كلام؟ لاشك أنه يكون بعيداً عن الله، لأن الكتاب يقول «طوبى لصانعى السلام، لأنهم يدعون أبناء الله» (متى ٥: ٩). فالذى لا يصنع سلاماً، بل يصنع خصومة، ليس هو إبناً لله.

* * *

سئل القديس يوحنا الأسيوطى:

هل الذى يدين الشر هو الذى يبغضه؟

فأجاب: كلا لأن كل الناس تقول إنها تبغض الشر. وإنما أعمالك هى التى تثبت أنك تكره الشر.

* * *

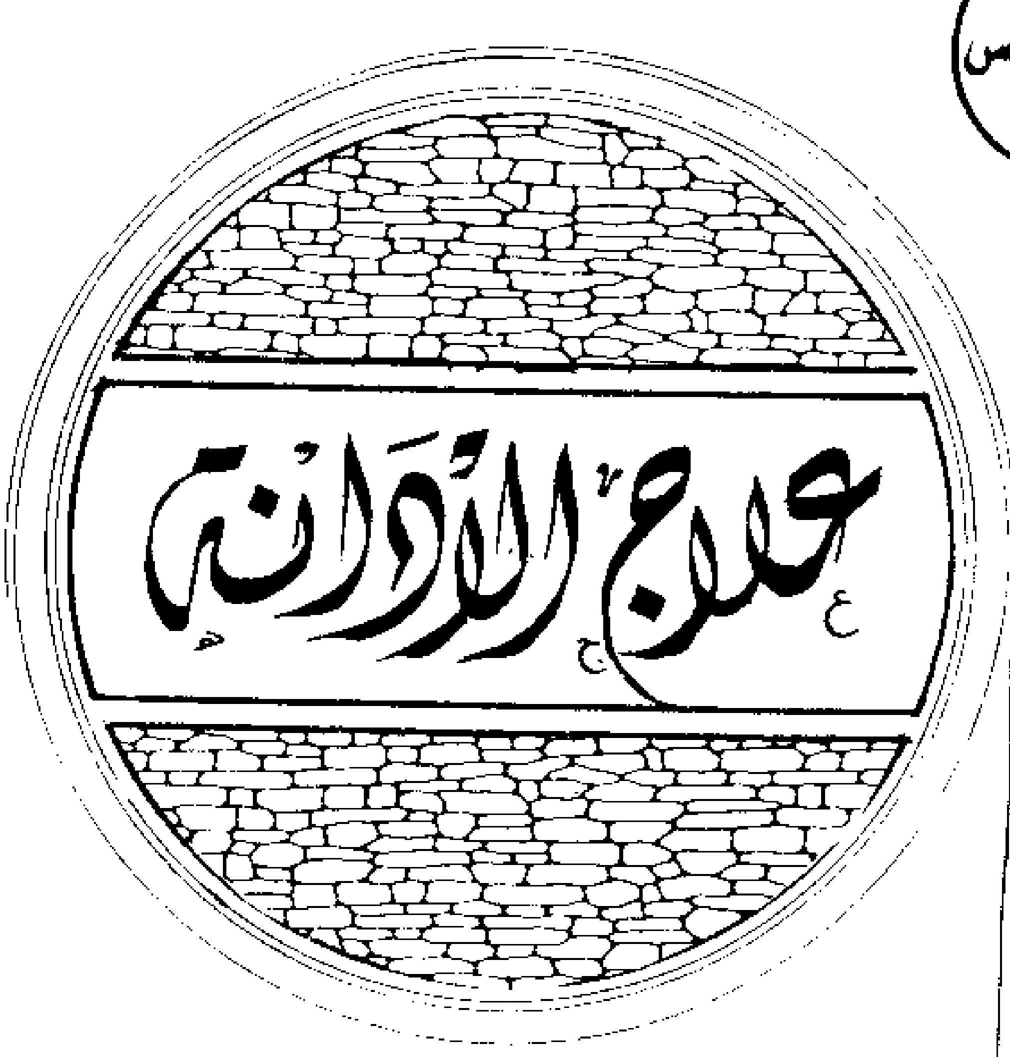
وقال القديس أوغسطينوس:

إن الإنسان الذى استطاع أن يروض الوحوش، لم يستطع أن يروض لسانه (كما قال معلمنا يعقوب ٣: ٨).

من ذا الذى لا يخاف من قول الرب: من قال لأخيه يا أحمق، يكون مستحقاً لنار جهنم».



الفصل الخامس



تعوّد احترام الناس .

معالجة مشكلة الفراغ .

البعد عن سماع الإدانة .

الاتضاع ولوم النفس .

حجة اصلاح الآخرين .

تداريب أخرى كثيرة .

تعود احترام الناس

إن عرفنا أسباب الإدانة، يمكن أن نعرف علاجها. وأول سبب هو أن الإنسان يبيح لنفسه أن يخوض فى سمعة الآخرين، ويجرح بهذا كرامتهم.

إذن عليك أن تتعود إكرام الناس ومحبتهم، سواء فى حضورهم أو غيبتهم.

عوّد نفسك عدم الإساءة إلى أحد، سواء فى الحديث معه، أو فى الحديث عنه. إن كانت لديك كلمة طيبة، قلها. وإلا، فالأصلح أن تصمت... تعود عدم إهانة أحد، وعدم الحديث عنه بالسوء. ولا تضع أحداً على ميزان النقد، ولا تشرّح شخصيات الناس. وفى هذه الحالة لن تدين أحداً.

إن الشخص الذى تعود احترام الغير، لا يمكن أن يدين الغير.

فى الحياة الاجتماعية يلقبون هذا الشخص بأنه «إنسان مهذّب». يكلم كل أحد بلباقة وباحترام وبأسلوب لطيف. ولا يعرف العيب طريقاً إلى لسانه. فلسانه لم يتعود أن يهين أحداً، ولا أن يتكلم على أحد كلمة سوء، وبالتالى لا يدين أحداً.

انظر ماذا يقول القديس يعقوب الرسول عن هذه النقطة بالذات فى حديث عن أخطاء اللسان:

« به نبارك الله الآب. وبه نلعن الناس الذين قد تكوّنوا على شبه الله » (يع ٣ : ٩).

فاعتبر أن خطية الإدانة لعنة، وإنها لعنة ضد أناس خُلقوا على صورة الله وشبهه ومثاله (تك ١ : ٢٦، ٢٧). وتابع الرسول كلامه معاتباً فقال «من الفم الواحد، تخرج بركة ولعنة! لا يصلح يا أخوتى أن تكون الأمور هكذا» (يع ٣ : ١٠).

إن كان الرب يقول «باركوا لاعنيكم» (متى ٥ : ٤٤)، فهل نحن نلعن أخوتنا ؟!

وهوذا الكتاب يقول « باركوا ، ولا تلعنوا» (رو١٢ : ١٤).

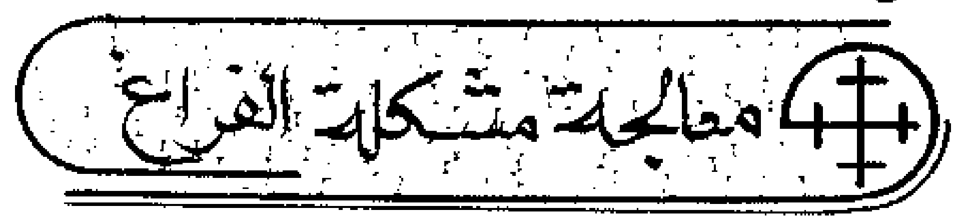
ليكن فمك إذن نقياً ، وليكن لسانك طاهراً عفيفاً ، تخرج منه كلمات البركة ، ولا تخرج منه كلمة إدانة : شتيمة كانت أم لعنة أم إهانة ...

تدرب أنك لا تتكلم إلا عن فضائل الناس بقدر استطاعتك.

ركز على النقط البيضاء التى فى حياتهم ، واترك الباقى. حاول أن تتناساه. أما الأشخاص الذين اسودت صورتهم فى ذهنك جداً ، وصاروا مثل «اسكندر النحاس» عند بولس الرسول (٢تى ٤ : ١٤) ، فالأفضل أنك لا تأتى بسيرتهم على لسانك ، أقول أيضاً «على قدر طاقتك» ... إلى أن يصلح الله أمرهم ، إن أمكن ذلك ، وحينئذ ستتغير صورتهم فى فكرك..

يستثنى من هذا أعداء الكنيسة وأعداء الإيمان.

أولئك الذين ينبغى أن تحذر الكنيسة منهم ، وتشرح أخطاءهم اللاهوتية حتى لا يقع أحد فيها . وعن مثل هؤلاء قال السيد الرب «احترسوا من الأنبياء الكذبة» (متى٧ : ١٥) وأيضاً «احذروا من الناس» (متى١٠ : ١٧).



فى كثير من الأحيان، إذ لا يجد الناس موضوعاً يتحدثون فيه، يكون حديثهم عن أخبار الناس وأخطائهم وفضائحهم وسقطاتهم.

وهكذا تكون سيرة الناس هى الموضوع الأساسى للحديث فى البيوت ، وفى النوادى والمقاهى ، وفى كثير من الجلسات حيثما وجدت .

ليس لأنهم يريدون أن يدينوا غيرهم ، وإنما لأنهم لا يجدون موضوعاً آخر -غير أخبار الناس- يتحدثون فيه .

وقد يدينون رؤساء دول لمجرد قراءة أخبار تمسهم فى الجرائد، دون معرفة مدى صحة هذه الأخبار!

أو يدينون شخصاً ذكرت الجرائد أنه قد قبض عليه فى حادث معين. وربما تذكر الجرائد بعد شهور أن القضاء قد برأه، بعد تحقيق ما قد نُسب إليه. ولكن هذا الإنسان تكون سمعته قد وصلت إلى التراب خلال تلك الشهور. وربما يكون البعض قد قرأ خبر القبض عليه، ولا يكون قد قرأ خبر الحكم ببراءته...

ليت الناس يجدون مواضيع دسمة ومفيدة يشغلون بها وقت فراغهم.

يقيناً إن وجدوا هذا، لا يكون أمامهم مجال لشغل وقتهم بمسك سيرة الناس.

انظروا إلى طلاب الكليات والمعاهد والمدارس، فى أيام امتحاناتهم، وهم مشغولون بالمذاكرة والمراجعة والاستعداد للامتحان، أتراهم لديهم وقت للحكايات، أو لتقليد المدرسين والتندر عليهم، أو للحديث عن أخبار زملائهم وأخطائهم وفضائحهم؟ كلا بلاشك، لأنهم مشغولون...

كذلك المرأة العاملة ليس لديها وقت كاف، للجلوس مع جاراتها والحديث عن أخبار باقى الجيران...

مع ما تحمل أمثال هذه الأخبار من التعرض لبعض الأخطاء وإدانتها. وإن وجدت وقتاً لهذا، يكون -بالمقارنة- أقل بكثير جداً من زميلتها التى لا تعمل، وأمامها فراغ طويل المدى لا تعرف كيف تقضيه، واحتمال الوقوع فى مسك سيرة الناس، محتمل أمامها جداً ووارد...

ولكننا نقول إن الفراغ هو نصف السبب والنصف الثانى هو كيفية قضاء الوقت فى هذا الفراغ.

فقد يستغل أحدهم الفراغ فى قراءة مفيدة، ينتفع بها، وينفع بها غيره فى أحاديثه معهم. والبعض قد يستغل الفراغ فى عمل اليد، أو فى التدريب على مهنة أو مهارة معينة، أو يستغل فراغه فى خدمة الآخرين. أو فى زيارة مريض، أو فى تعزية حزين، أو فى مساعدة محتاج.

وفى الاجتماع مع الناس ، ما أحوج الكل إلى موضوع نافع يتحدثون فيه .

ويمكن هذا ، إن قصد أحدهم هذا الأمر، واستطاع أن يدير الحديث فى موضوع نافع ، يكون قد درسه ، وأصبح مستعداً للكلام فيه ، والإجابة عن كل سؤال يدور حوله . وإدارة دفة الحوار بطريقة تفيد الكل . وذلك قبل أن يبدأ غيره فيطرح سيرة توقع الكل فى الإدانة ...

ويمكن أن يحدث هذا أيضاً فى محيط الأسرة .

بطريقة بسيطة وتلقائية ، لا تشعر أحداً بأنه أمام مدرس أو محاضر... وذلك بطرح موضوع علمى، أو دينى، أو قصة أو خبر نافع ، أو اكتشاف مفيد، أو ملخص لباب قرأه فى أحد كتب الثقافة أو كتب التاريخ ، أو أمر جديد ممتع من أمور المعرفة ، أو بعض التسليات والألغاز حول الكتاب المقدس أو سير القديسين .

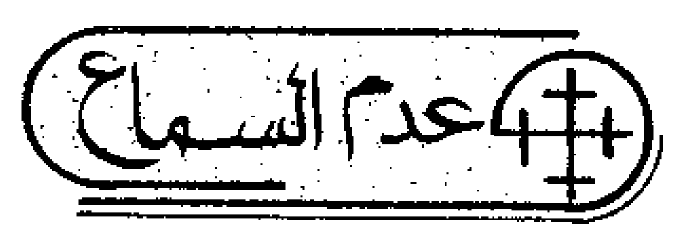
إن الجلسة العائلية تحتاج إلى استعداد ، وكذلك جلسات الأصحاب ...

أما ترك تلك الجلسات فى فراغ ، فإنه يقود إلى أمثال هذه الإدانات ، أو إلى الثرثرة الفارغة التى هى مضيعة للوقت ، أو الحديث فى أى منازعات قد تتحول إلى صياح وشجار. ذلك لأنه لا يوجد موضوع نافع يتحدثون فيه ، أو لا يوجد من يتولى دفة الحوار بمهارة .

ألا ترون أن السبب ليس مجرد فراغ فى الوقت ، وإنما فى الفكر أيضاً ...

ونعود إلى السؤال مرة أخرى : لماذا تمتلىء البيوت والنوادى والجلسات بمسك سيرة الناس ؟ ونجيب :

لأنهم فى فراغ ، لا يجدون موضوعاً آخر يتحدثون فيه .



حاول بقدر امكانك ، أن لا تسمع ما يقال عن أخطاء الآخرين .

ابعد عن المجالس التي تعرف أنها ستدور حول هذه الموضوعات وأمثالها. وإن اضطررت للجلوس، فلا تجعل ذهنك مركزاً فيما تسمعه، بل حاول أن تشغل نفسك بشيء آخر، أو حاول أن تغير مجرى الحديث.

وما تسمعه عن أخطاء الناس، لا تصدقه كله.

ربما الراوى الذى روى الحديث لم يراع الدقة، أو ربما أن الخبر قد تناقل من شخص إلى آخر، حتى وصل أخيراً بطريقة مختلفة عن الواقع. وربما أن الطرف الآخر له ردّ على كل هذا الذى يقال. ونحن لا نستطيع أن نحكم على أمر من جانب واحد. وقل لنفسك أيضاً:

حتى إن كان كل ما قيل صدقاً، ما شأنى أنا به؟

استخدم هذه العبارة «أنا مالى خلينى فى حالى».

اخبار الناس ليست من اختصاصى، ولا أنا مسئول عنها أمام الله والناس، وهذا الذى سمعته، كأنى لم اسمعه ولا علمت به.

وهكذا لا تعاود التفكير فيما تسمعه من إدانات.

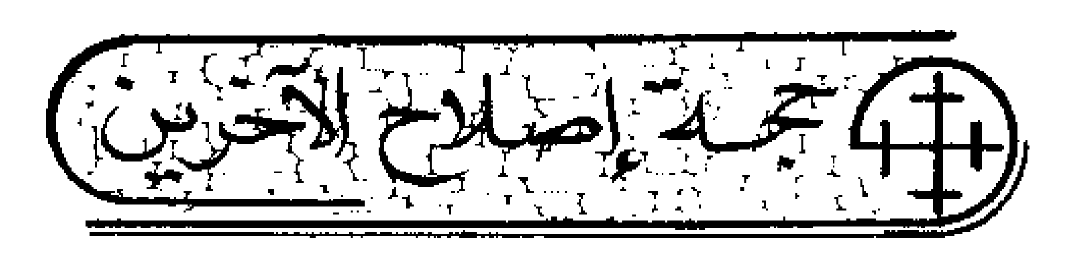
لأن التفكير يثبت الإدانة فى ذهنك، وربما يتطور الأمر معك. فليكن ما سمعته إذن لا يعدو أن يكون كلاماً عابراً، لا تعطه عمقاً فى داخلك. ولا تتحدث فيه مع آخرين، ولا تنقله إلى أحد، حتى لا يكبر حجمه...

وحاول أن تصلى من أجل الشخص المدان، ليستر الله عليه.

اطلب له المغفرة، واطلب له الرحمة، واسأل الله أن يصلحه. ولكن أياك أن تحتقره أو أن تدينه.

قال القديس الأنبا موسى الأسود «إياك أن تسمع بسقطة أحد أخوتك لئلا تكون قد دنته خفية.

* * *



إن اتاك فكر أنك إنما تدين لأجل اصلاح الآخرين، وبدافع من الغيرة المقدسة، حينئذ قل لنفسك:

ليس من أجل إصلاح الآخرين ، أنا أخسر نفسى !

وقل أيضاً : هل أنا الذى أقيم نفسى مصلحاً للآخرين؟ أم إننى مكلف بذلك رسمياً أمام الله، بحيث يتعبنى ضميرى إن لم أفعل؟ ثم هل وصلت أنا إلى المستوى الذى أصلح فيه غيرى؟

وإن كنت قد اؤتمنت فعلاً على وكالة (١كو٩: ١٧)، فلتضع أمامك هذه القاعدة الروحية الهامة:

الذى يريد أن يصلح الآخرين ، ينبغى أن يصلحهم بطريقة صالحة .

ويأتى ذلك بالحب ، وبالاتضاع، وبالكلمة اللطيفة الهادئة، وعدم جرح شعور أحد فيما تريد صلاحه. وأيضاً عدم كشف عيوبه أمام الناس.

ولا يمكن أن تصلح أحداً بتعييره أو مسك سيرته .

وفى هذا الأمر ما أجمل قول الرب «فيما بينك وبينه وحدكما» (متى١٨ : ١٥). ويقول القديس يوحنا ذهبى الفم فى تأملاته حول هذه الآية «اسمعوا ما يقوله المسيح... وبخه فيما بينك وبينه، ولم يقل بينك وبين كل المدينة، ولا بين كل الشعب... إنه توبيخ فى السر، لكى يكون الاصلاح سهلاً».

والله يفعل معك مثل هذا ، فى السر أيضاً :

فهو حينما يريد أن يبكتك على خطيئتك ويقودك إلى التوبة ، يفعل هذا فى سر من الأسرار الكنسية، فيما بينك وبين كاهنه سراً، وليس فى اعتراف علنى...

وفى الدفاع عن الحق واصلاح الآخرين أذكر قول بولس الرسول :

« أيها الأخوة إن إنسبق إنسان ، فأخذ فى زلة، فاصلحوا أنتم الروحانيين مثل هذا **بروح الوداعة**، ناظراً إلى نفسك لئلا تجرب أنت أيضاً » (غل ٦ : ١) .

وأيضاً قول القديس يعقوب الرسول «من هو حكيم وعالم بينكم ، فلير أعماله بالتصرف الحسن فى **وداعة الحكمة**. ولكن إن كانت لكم غيرة مرة وتحزب فى قلوبكم ، فلا تفتخروا وتكذبوا على الحق . ليست هذه الحكمة نازلة من فوق ...» (يع ٣ : ١٣- ١٥) .

نقطة أخرى وهى : عليك أن تختبر نفسك جيداً :

أحقاً أنت تدين من أجل اصلاح الآخرين ؟

هل دوافعك هى مجرد غيرة مقدسة خالصة ، غير مختلطة بمشاعر أخرى :

أم أن الدافع الحقيقى هو عدم محبة هذا الشخص ، وحقد مستتر، أو شماته بإنسان مخطىء ، أو محاولة اظهار أنك تعرف أكثر، وأنك بالمقارنة أفضل ، وأنك فى موقف المعلم والمؤدب والقائد ... ! اختبر نفسك جيداً .

وان كنت فى غيرتك تدعى أنك تأخذ حق الله من الناس ،

فهل أخذت أولاً حق الله من نفسك ؟

هل بدأت باصلاح نفسك ، قبل أن تقوم باصلاح غيرك ؟ هل أصبحت «تبصر جيداً» (متى ٧ : ٥) بحيث تستطيع اخراج القذى من عين أخيك ، دون أن تتلف عينه ؟ على أنه فى موضوع اصلاح الآخرين ، نحب أن نضع أمامك :



لقد جاء الخدام إلى الرب يسألونه هل يذهبون فيخلعون الزوان من الحقل ، فأجابهم «لا ، لئلا تقلعوا الحنطة مع الزوان وأنتم تجمعونه . دعوهما ينميان كلاهما معاً إلى يوم الحصاد» (متى ١٣ : ٢٨- ٣٠) .

إن الله لا يريدنا أن نضيع جهودنا فى خلع الزوان، بقدر ما يريدنا أن ننمو كحنطة.

حتى إذا جاء يوم الحصاد، يجد سنابلنا مملوءة بثلاثين وستين ومائة، فتمتلىء أهراؤه قمحاً...

كثيرون شغلوا أنفسهم بجمع الزوان، باسم الغيرة المقدسة والاصلاح. وبسبب هذا امتلأوا غضباً وعصبية وصياحاً. وملأوا الجو بالإدانة والانتهار وتوبيخ الآخرين، والحديث عن أخطاء الكنيسة والجمعيات والخدام والكهنة، بألفاظ كلها قسوة، وخالية من الاحترام ومن الأسلوب اللائق المهذب.

ونظر الناس إلى هؤلاء (المصلحين) وصورتهم العصبية واساليبهم المهينة، وقالوا: إنها تذكرنا تماماً بصورة الزوان.

نعم، أخشى عليك فى جمع الزوان، أن تصير أنت نفسك زواناً!

إذ تفقد وداعتك واتضاعك، وتتعلم الشتيمة والإهانة، ومسك السيرة، والتعالى على الناس... كما تتعود قسوة القلب فى احكامك، بل قد تكره البعض وتعاديهم. وتثور وتضج... عجباً اتراك من أجل الرب فى كل تلك الخطايا؟!

نعم احترس، لئلا فيما تخلع الزوان من الناس، تخلع أيضاً الحنطة التى فيك: تخلع هدوءك، وسلامك القلبى، ودماثة خلقك. وتخلع أيضاً ثمار الروح التى عندك «المحبة والفرح والسلام والوداعة واللطف والتعفف» (غل ٥: ٢٢).

ومع فقدك كل هذا تجد أنك لم تصلح أحداً!

وإنك لاكسبت سماء ولا أرضاً، ولاكسبت قيادة الناس، إلى الملكوت، ولا كسبت هدوءك وعلاقتك مع الناس على هذه الأرض. لاكسبت الناس، ولا ربحت نفسك... لأن اصلاح الناس لا يأتى عن طريق الإدانة والتشهير...

يقول القديس أوغسطينوس:

«إننا عندما نغتاظ من الأشرار، فلسنا بعد سوى بشر. وعلينا أن نصغى إلى قول الرسول: من يظن أنه قائم، فلينظر لئلا يسقط (١كو١٠: ١٢)»

فلنكن نحن حنطة ، ولا نضيع أوقاتنا فى جمع الزوان . وإذا أردنا أن نجمع زواناً ، فلنجمع الزوان الذى فينا . لنجمع الخطية التى فينا ونخرجها خارجاً .

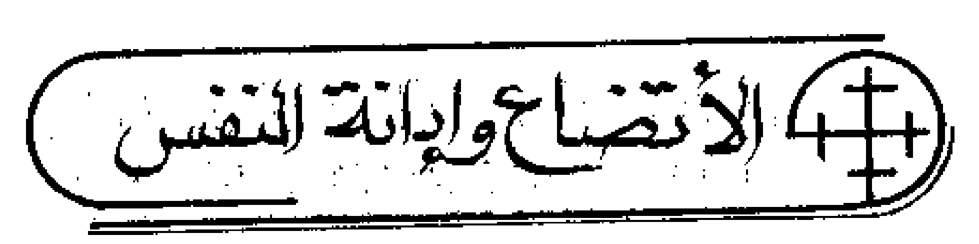
لئلا فيما نحاول اصلاح غيرنا ، ننسى اصلاح أنفسنا .

عجيب أن كل أحد أصبح يقيم نفسه مسئولاً عن الناس !

يفكر فى الناس وأعمالهم ، وما ينبغى أن يصدر على أعمال الناس من أحكام ! أما نفسه فهى آخر ما يفكر فيه !

صدقونى إنها حرب من الشيطان أن يشغلنا عن أنفسنا ، بالتفكير فى خطايا الناس ، وأن يشغلنا عن التوبة ، بالتفكير فى أعمال الناس .

إن الله فى اليوم الأخير سوف لا يحاكمك على خطايا غيرك . إنما سيحاكمك عن أخطائك وحدك .



الاتضاع وإدانة النفس

يمكن معالجة خطية إدانة الآخرين ، عن طريق إدانة النفس ..

★ وقد شرح القديس مارأوغريس كيف أن كلاً منهما ضد الأخرى ، فقال :

« إن دنا أنفسنا ، وحكمنا على أنفسنا أننا أشرار، يبدو الناس أمامنا أطهاراً وملائكة . وإذا دنا الناس وحكمنا عليهم بأنهم أشرار، نبدو نحن أمام أنفسنا أننا ملائكة وقديسين » .

★ فى إحدى المرات مدح بعض الأخوة شخصاً أمام القديس الأنبا بيمن ، وقالوا فى سياق الحديث إنه يكره الأعمال الشريرة . فسألهم عن معنى عبارة «يكره الأعمال الشريرة» . فلما ارتبكوا فى الإجابة ، قال لهم : « كراهية الأعمال الشريرة هى كراهية الأعمال الشريرة التى نعملها نحن ، وليست الأعمال التى يعملها الناس » .

★ **قال القديس الأنبا باخوميوس «إن الإدانة تأتى من تعظم القلب. أما المتضع، فإنه يعتبر كل الناس أفضل منه».**

وقال القديس باخوميوس:

« احفظ نفسك من ذلك الفكر الذى يجلب عليك تزكية ذاتك وازدراء أخيك، لأنه مغبوط جداً قدام الله ذلك الإنسان الذى يكرم غيره و يرذل نفسه»

لذلك كلما يأتيك فكر إدانة لأحد، تذكر خطاياك. وقل: هذا الإنسان أبر منى، لأنى فعلت كذا وكذا. ولا يمكن أن يكون هو قد وصل إلى هذه السقطات التى وقعت فيها أنا.

إنك إذا لم تفكر فى عيوبك، فسوف تقع فى عيوب غيرك.

★ **لذلك يقول مارإشعياء: إن تركت الاهتمام بخطاياك ولم تنشغل بها، وقعت فى خطايا غيرك.**

★ سأل أحد الأخوة شيخاً من شيوخ الرهبنة «ما هو السبب فى أنى أدين الأخوة دائماً ؟». فأجابه الشيخ: لأنك لو عرفت نفسك، لما تفرغت لغيرك. لأن الذى يهتم باخراج الخشبة من عينه، لا يتفرغ لاخراج القذى من عين أخيه.

ولهذا إن فكرت أن تدين إنساناً، قل لنفسك «أنا أيضاً خاطىء».
«إن فحصت نفسى جيداً، ووجدت إننى بلا خطية، فلأقذفه بهذا الحجر...

★ فى إحدى المرات طردوا أخاً من المجمع، وأخرجوه خارجاً. فسأل **القديس بيساريون** عن السبب، فقيل له بسبب الخطية التى وقع فيها. فقام القديس بيساريون وخرج هو أيضاً خارج المجمع، وهو يقول: «وأنا أيضاً رجل خاطىء».

★ **ومعروفة قصة القديس موسى الأسود**، الذى دعى إلى المجمع لمحاكمة أخ أخطأ. فحضر وهو يحمل على ظهره كيساً مثقوباً ومملوءاً بالرمل. فسألوه لماذا فعل هكذا؟ فقال «هذه خطاياى وراء ظهرى تجرى، وقد جئت لأدين أخى على خطيئته !!» ...

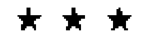
★ أخ سأل الأنبا بيمن قائلاً «كيف استطيع أن لا أقع فى الناس؟»

فأجابه : إذا لام الإنسان نفسه، فحينئذ يكون أخوه عنده أكرم وأعظم. أما إذا نظر إلى نفسه بأعجاب، يكون أخوه فى نظره خاطئاً ومداناً.

★ قال ماراسحق : «مغبوط هو الإنسان الذى يكرم أخاه، ويدين نفسه. ومغبوط هو الذى يرى فى عيوب الآخرين سقطات نفسه».

أى أنه كلما يرى عيباً فى الآخرين، يبحث داخل نفسه، فسيجد أن هذا العيب فيها. فيلوم نفسه بدلاً من أن يدين غيره...

وإذا رأى الناس يوبخون شخصاً على خطأ معين، يقول لذاته «هذا القلم على خدك يا ارسانى».





١ ـ درب نفسك على معالجة خطايا اللسان جملةً...

فستجد أنك قد تخلصت من خطية الإدانة ضمناً. اسلك فى بعض تداريب الصمت. أو فى تدريب عدم التدخل فيما لا يعنيك، ولاشك أن خطية الإدانة ستكون ضمن تدخلك فى شئون غيرك.

هذا التدريب سوف يساعدك على مقاومة (الإدانة باللسان). وسيكون خطوة فى مقاومة الإدانة بالفكر أيضاً بمرور الوقت، لأنه سيغرس فى قلبك البعد عن الإدانة.

* * *

٢ ـ تذكر قول الرب « اذكر من أين سقطت وتب » (رؤ٢ : ٥)

وذلك بأن تجلس فيما بينك وبين نفسك، وتعرف من هم الأشخاص الذين تدينهم باستمرار؟ وما هى الموضوعات التى توقعك فى الإدانة؟ وما هى الجلسات أو الشخصيات التى تكون عثرة لك. ثم تحترس من جهة هذه المصادر التى تتسبب لك فى إدانة الآخرين.

٣ـ يمكن معالجة الإدانة بالمحبة :

فإن كنت قد فقدتها بالنسبة إلى البعض، أو فقدت بعضها، فحاول بقدر إمكانك أن تسترجع ما فقدته. لأن الكتاب يقول عن المحبة إنها «لا تقبّح» «ولا تظن السوء، ولا تفرح بالإثم» (١كو١٣: ٥، ٦)، وبالتالى لا تدين

وتأكد من أن الإدانة تزيد العلاقات سوءاً فبدلاً من أن تسترجع المحبة القديمة، قد تزداد الهوة عمقاً بينك وبين الذى تدينه، وبخاصة إذا كان هناك من يوصلون الكلام، ومن يزيدون عليه. وحتى بدون هؤلاء، أمام ضميرك وقلبك لن ترتاح...

* * *

٤ـ تذكر اضرار الإدانة عليك :

وما قاله القديسون من أنه بالدينونة قد تفارقك النعمة والمعونة الإلهية، وهكذا تتعرض للسقوط. وكذلك ما قاله السيد الرب إنه بالكيل الذى به تكيلون، يكال لكم ويزاد». كذلك ما توقعك فيه الإدانة من خطايا أخرى تصاحبها.

قال القديس بفنوتيوس :

احذر أن تقول كلمة ردية على أخيك، لكى لا يمنعك الله من أرض الميعاد، وتحرم من أكل ثمرتها... كما جرى مع شعب اسرائيل بالنسبة إلى موسى ابيهم ويشوع وكالب أخويهم».

وقال شيخ :

« إن خطية الوقيعة من شأنها أن لاتترك صاحبها يحضر قدام الله، لأنه مكتوب «إنى كنت اطرد من يغتاب قريبه سراً» (مز١٠١: ٥)

وابتعد عن الإدانة خوفاً من السقوط، وخوفاً من العقوبة.

ولا مانع من أن تضع فى ذهنك بعض آيات الكتاب الخاصة بالإدانة: تحفظها وترددها، وتتأملها بين الحين والآخر.

* * *

٥ ـ تدرب أنك لا تظن السوء بالناس ، ولا تحكم حكماً سريعاً.

فقد يكون الظن السيء فيه ظلم ، وكذلك الحكم السريع . ولذلك لا تحكم على أحد دون فحص ، وبسرعة . بل تعوّد التروى والتأنى فى أحكامك عموماً ، سواء ما لك حق فيه ، وما ليس لك فيه حق .

واحترس من أن تلبس نظارة سوداء ، تنظر بها إلى الناس .

* * *

٦ ـ تعود الشفقة على الناس فى أحكامك :

حاول أن تأخذ الجانب الذى يتراءف ، وليس الذى يقسو . وفكر فى قلبك ، ربما تجد عذراً يخفف من الحكم . وفى اشفاقك صَلّ من أجل المذنب ، فالصلاة تزيد مشاعر الشفقة ، كما أن الشفقة تدفعك إلى الصلاة .

* * *

٧ ـ ولا تكون الإدانة حسب الظاهر :

فربما تجد رجلاً يبكى أمام كنيسة أو جمعية ويطلب مالاً لأنه لا يجد طعاماً لنفسه وأولاده ، ومع ذلك لا يعطيه أحد . فتقول « ما أقسى هؤلاء الناس الذين لا يرحمون جائعاً !! بينما لو سألت لعلمت أنه يأخذ كثيراً ، ربما أكثر من حاجته ، ولا يكتفى . ويقوم بمثل هذا الموقف الباكى المستغيث لمجرد الاحراج والضغط أمام الناس ، لأخذ المزيد بدون استحقاق !

* * *

٨ ـ درّب نفسك أن تحتمل من يسيئون إليك :

فأحياناً عدم احتمالك لهم ، يجعلك تتبرم بهم ، وتشكوهم ، وتتحدث عن أخطائهم أمام كل أحد ، وتدينهم بمقدار ما أنت متضايق منهم .

أعرف أننا لا نعيش فى عالم كله مثالية . بل توجد أخطاء . وإن ثار قلبنا على كل خطأ ، وانتقلت الثورة إلى ألسنتنا ، فأخذت تدين وتنشر أخطاء الناس ، وتهدد

وتعاقب ... لاشك أننا أنفسنا لن نستريح، كما أننا لا نريح أحداً.

كثير من أخطاء الناس، تحتاج منا أن نجوز مقابلها، ونغررها بالصبر والاحتمال كأن لم نتحدث، دون أن ندين أصحابها ...

* * *

٩ ـ احترس من إدانة شخص على عيب خَلْقى لا ذنب له فيه:

أو تجعله مجالاً للهزأة والاستهتار والتهكم بسبب شكله، أو عقله، أو تشويهه، أو قصره، أو سمنته الزائدة، أو ما شابه ذلك. لأنه ليس من العدل أن يحكم على إنسان بسبب شيء هو خارج ارادته.

* * *

١٠ـ كن حريصاً جداً فى الإدانة بطريق العتاب:

لأنه وإن كان الله قد صرح بالعتاب (متى١٨: ١٥)، إلا أنه ليس كل إنسان يحتمل العتاب. وكم من عتاب أتى بنتائج سيئة جداً. ولذلك قال الكتاب «من يوبخ مستهزئاً يكسب لنفسه هواناً، ومن ينذر شريراً يكسب عيباً. لا توبخ مستهزئاً، لئلا يبغضك. وبخ حكيماً فيحبك» (أم٩: ٧، ٨).

* * *

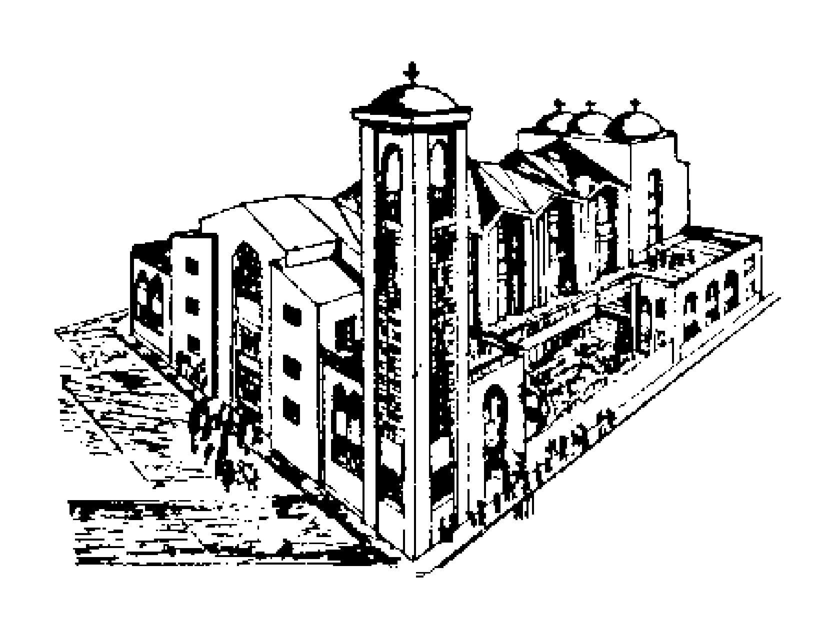
ـ ختاماً: لا تجعل خطية الإدانة تصبح طبعاً من طباعك:

فهناك فرق بين الإدانة العابرة. والإدانة التى تصير منهج حياة، أو صفة ملازمة لإنسان. حيثما يوجد يدين ويحكم ويتناول سير الناس بالنقد والتحليل، بسبب وبدون سبب !!

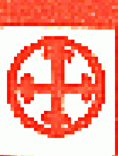
* * *

الفهرست

صفحة







بسم الآب والابن والروح القدس

الإله الواحد آمين

نقدم لك موضوع إدانة الآخرين، في بحث مفصل، لكي تعرف:

متى تجوز الإدانة؟

ومتى تجب؟

ومتى تكون خطية؟

وما هي أنواع خطية الإدانة؟

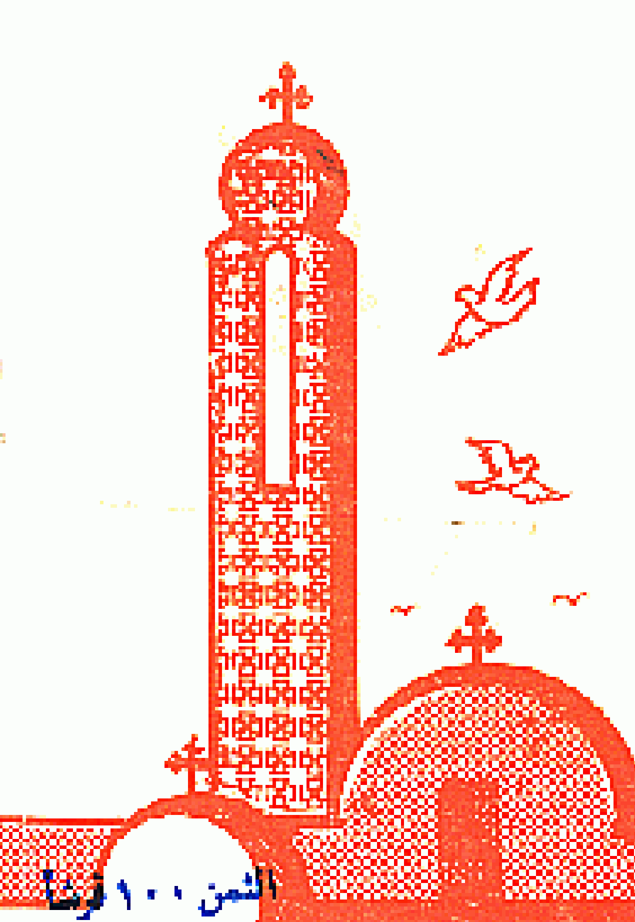
وما هي الصور التي تصدر بها، سواء باللسان أو بالفكر أو بالقلب، أو بطرق أخرى؟ وما هي أضرارها؟

وما هي الخطايا المصاحبة لخطية الإدانة في غالبية الأحوال، والتي معها تصبح خطية مركبة؟

ثم ماذا قال آباء الكنيسة في موضوع الإدانة؟ وما الذي نفهمه من أقوالهم؟

وأخيراً ما هي الوسائل التي نعالج بها خطية الإدانة؟

شنوده الثالث



الثمن ١٠٠ قرشاً